إيفان فرانكو

الأوراق الذابلة

إيفان فرانكو: كاتب وشاعر أوكراني بارز، صحافي ومترجم وباحث، ناشط اجتماعي وسياسي. حاصل على دكتوراه في الفلسفة (*1893*)، عضو جمعية شيفشينكو العلمية (*1899*)، ودكتوراه فخرية من جامعة خاركيف (*1906*).

عماد الدين رائف: كاتب وصحافي ومترجم لبناني. باحث في الأدب الأوكراني. عضو اتحاد الكتاب اللبنانيين، واتحاد الصحافيين العرب.

ألكسندر إيفانوفيتش ميلنيك: رسّام أوكرانيّ ولد في العام *1949*، يعمل في مجالات الرسم الزخرفي الأثري (الفسيفساء، الرسم على الزجاج والقماش، والجداريات) واللوحات والرسوم التطبيقيّة. أمين المعارض الفنيّة المتضمّنة أعمالا تاريخيّة مناوئة للحروب وداعية للسلام.

إيفان فرانكو

الأوراق الذابلة

Іван Франко

Зів'яле листя

Лірична драма

Переклад арабською мовою
Імадедділна Раефа

Київ – Бейрут
2017

إيفان فرانكو

الأوراقُ الذَّابِلة

دراما غنائيّة

تعريب ونظم

عماد الدين رائف

كييف – بيروت
2017

УДК 821.161.2:82-14(=161.2+411.21)
ББК 83.3(4Укр)6
Ф 83

ترجمة القصائد إلى العربية: **عماد الدين رائف**
الرسم: **ألكسندر ميلنيك**

تصدر هذه الطبعة برعاية سفير أوكرانيا في الجمهورية اللبنانية **إيهور أوستاش**
مؤلفة المشروع ومديرته: **مارينا هريميتش**
التصميم الفني: **أندريه كوتشيروك** و **بوهدان فينهير**
النص المنشور بناء على طبعة:
إيفان فرانكو. الأوراق الذابلة. دراما غنائية. لفيف – كييف.
جمعية تاراس شيفتشينكو العلمية، *1922*. *77* صفحة.

فرانكو إ.

Ф *83* **الأوراق الذابلة**: دراما غنائية/ مقدمة سولوميا فيفتشر، افتتاحية إيهور أوستاش. تقديم عماد الدين رائف. كييف – بيروت: سفارة أوكرانيا في الجمهورية اللبنانية – جمعية "الجالية الأوكرانية في لبنان"، *2017*. *208* ص.

ISBN 978-617-7310-23-4

تهدف هذه الطبعة لمجموعة «الأوراق الذابلة» لإيفان فرانكو باللغتين الأوكرانية والعربية إلى تعريف العالم العربي بروائع الأشعار الأوكرانية والفنون الجميلة والتقاليد الثقافية الغنية. وقد نقل قصائد إيفان فرانكو الشعرية الكلاسيكية إلى العربية شعرًا الكاتب الصحافي اللبناني الباحث في الآداب الأوكرانية عماد الدين رائف. ويعرض القسم الفني من هذه الطبعة أعمالا للفنان المعاصر المتميز ألكسندر ميلنيك.

УДК 821.161.2:82-14(=161.2+411.21)
ББК 83.3(4Укр)6

إيفان فرانكو
الأوراق الذابلة
دراما غنائية

نصّان متوازيان بالأوكرانية والعربية

مؤلفة المشروع ومديرته: **مارينا هريميتش**
ترجمة القصائد إلى العربية شعرًا: **عماد الدين رائف**
الفنان: **ألكسندر ميلنيك**
الصور: **بوهدان فينهير**
التصميم الفني: **أندريه كوتشيروك** و **بوهدان فينهير**
التصميم، الماكيت الأصلية، الغلاف والغلاف الخارجي: **أندريه كوتشيروك**
ترتيب شكلي *16/100*70*. عدد النسخ *500*.
إصدار سفارة أوكرانيا في الجمهورية اللبنانية، جمعية "الجالية الأوكرانية في لبنان".

الطباعة:
الشركة الطباعية «توف – مطبعة بيزنيسبوليغراف"
شارع فيسكوزنا،*8*، كييف.
شهادة نشر الأعمال بموجب القانون المدني، الرقم *2715*، بتاريخ *07* كانون الأول/ ديسمبر *2016*.

ISBN 978-617-7310-23-4
© عماد الدين رائف، ترجمة، *2017*

سفارة أوكرانيا في الجمهورية اللبنانية

هذا الكتاب

سفارة أوكرانيا في الجمهوريّة اللبنانية

وجمعية «الجالية الأوكرانية في لبنان"

نفّذتاه

في إطار متابعة العمل على خطة فعاليات

وزارة الخارجيّة الأوكرانية

للعام *2017*

بشأن إنفاذ برنامج الميزانية الرقم *140111*،

لتعزيز الروابط مع الأوكرانيين القاطنين خارج حدود أوكرانيا

(وفق القرار الصادر عن وزارة الخارجية، الرقم *209*، بتاريخ *18* أيار/ مايو *2017*)

وبدعم من

سفير أوكرانيا الفخري في الجمهورية العربية السورية

تامر التونسي

فهرس

كلمة افتتاحية، إيهور أوستاش *7*

إيفان فرانكو وأوراقه الذابلة (مقدّمة)، س. فيفتشر *9*

تقديم المعرّب، عماد الدين رائف *12*

الأوراق الذابلة

مقدمة، إيفان فرانكو *15*

القبضة الأولى (*1886-1893*) *17*

القبضة الثانية (*1895*) *46*

القبضة الثالثة (*1896*) *76*

كلمة افتتاحية

يمهّد النصّ الأدبي الأوكراني طريقه، شيئًا فشيئًا، إلى قلوب الناطقين باللغة العربيّة. وأبدأ هنا من حقيقة مثيرة، وهي أنّه في العام *1708*، في مدينة حلب السوريّة كانت قد وجدت بين مقتنيات الهيتمان (القائد) إيفان مازيبا نسخة من الإنجيل مترجمة إلى اللغة العربيّة.

كانت أولى ترجمات قصيدة شاعرنا العظيم تاراس شيفتشينكو «العهد» في العام *1910*، على يد الكاتب والشاعر اللبناني الكبير ميخائيل نعيمة، الذي كان آنذاك نزيل مدينة بولتافا، بين العامين *1906* و*1911*. وكانت المدينة قد أوحت إليه بتلك الترجمة، وهو على مقاعد الدراسة في سيمينارها الروحي. وللمناسبة، بعد مرور قرن من الزمن على ذلك، أي في العام *2011*، رفع أحفاد الشاعر الأوفياء تمثالًا له في المدينة.

في العام الماضي، ولمناسبة الاحتفال بالذكرى المئتين على ولادة تاراس شيفتشينكو، صدرت ترجمة عربية لمجموعة مختارة من أشعاره. وتضمن الكتاب مقالات للكاتب الكويتي الباحث في الآداب الأوكرانية الدكتور علي العنيزي والبروفيسور غريغوري سيمينوك، عن حياة شيفتشينكو وإبداعاته، إلى جانب أشعاره ولوحاته الفنيّة ونصّه المسرحي «نَزَار ستودوليا». كذلك في العام المنصرم، ولمناسبة الاحتفال اليوبيلي، ترجمت إلى العربيّة قصيدة أخرى للشاعر الكبير بعنوان «يهدر الدنيبر الواسع ويتنهّد»، وذلك على يد المترجم الأردني المميّز رسلان عيّاش، وهو خرّيج «جامعة ف.ن. كارزين الوطنية الأوكرانيّة» في خاركيف.

وفي الأعوام الثلاثة الماضية، ظهرت ترجمتان عربيتان مهمّتان لمؤلفين أوكرانيين. الأولى، ترجمة مجموعة «قصص بيروتيّة» للكاتب والمستشرق الأوكراني أغاتانغل كريمسكي، الذي عاش في لبنان نحو عامين، تاركًا خلفه انطباعات بالغة العمق. وكانت السفارة الأوكرانية في لبنان قد نظّمت حفل عرض هذه الترجمة في أوكرانيا. أما الترجمة الثانية، فيتضمّنها هذا الكتاب الذي بين أيديكم، وهو تعريب الدراما الغنائيّة «الأوراق الذابلة». ولم يكن اختيار هذا الديوان من قبيل الصدفة، فنحن نأمل أن يُسعد القارئ العربي بقصائد الحبّ التي أبدعها إيفان فرانكو، وذلك مقارنة بالأدب العربي نفسه، الذي يتميّز شعره الغنائي الكلاسيكي بالعراقة والغنى.

وهذا الكتاب نتيجة تعاون بين السفارة الأوكرانية والمترجم المتميّز - عن الأوكرانية ولغات سلافيّة أخرى – الباحث في الآداب الأوكرانيّة، والكاتب الصحافي، عضو «اتحاد الكتّاب اللبنانيين» و«اتحاد الصحافيين العرب» عماد الدين رائف. وقد كان رائف قبل وقت غير بعيد، خلال حفل افتتاح الحديقة الأوكرانيّة في لبنان، قد ألقى ترجمته العربيّة كذلك لقصيدة شيفتشينكو «سلبُ الإرادة قاهرٌ...»، وها هو الآن يقدّم تعريبه لعمل من أعمال إيفان فرانكو.

وقد كان فرانكو نفسه مترجمًا عظيمًا، فقد ترجم أعمال أكثر من مئتي مؤلف من *14* لغة، منهم هوميروس وسوفكليس، هوراس وفرجيل، شيكسبير وغوته، فرانس وتوين، ايبسن وميتسكيفيتش، بايرون وبيرنز وديكينز، وكتاب كثر آخرون، وبين الأعمال *37* منتجًا لكتاب وطنيين.

وإدراكًا منه لأهميّة ترجمة الآداب العربيّة، باعتبارها أحد كنوز الثقافة العالميّة في زمانه، أعاد فرانكو صياغة الموزاييك القصصي لبعض الحكايات القديمة الرائعة، ومنها قصة «أبو قاسم»، و «القوّال باسم». وحظيت بعض القصص، كذلك، بترجمة شعريّة رائعة تضمنها أكثر من مئة مقطع في الترجمة الأوكرانيّة الثانيّة لحكايات «ألف ليلة وليلة»، التي صدرت في العام *1912-1913*.

وتطلّ الصدفة برأسها من جديد مع هذا الكتاب، فإيفان فرانكو لم يكتب لأحد شيئًا عن مجموعته الشعريّة «الأوراق الذابلة»، سوى ما تقاسمه عنها مع صديقه أغاتانغل كريمسكي في رسالة له بتاريخ *26* آب/ أغسطس *1898*. والكتاب الذي بين أيديكم ، يتضمّن إضافات فنّيّة موفقة للغاية، فإلى جانب الأشعار تظهر لوحات الفنان الأوكراني البارز ألكسندر ميلنيك، التي تخلق مزاجًا شعريًا خاصًا، مؤكّدة مدى عمق أشعار إيفان فرانكو.

في زمانه، كتب فلاديمير سوسور نبوءة تقول: ستبقى أوراقك الذابلة حيّة/ في صخب ربيعنا المشرق. واليوم، ها هي هذه التحفة الأدبيّة «الأوراق الذابلة» التي أبدعها إيفان فرانكو، تعود إلى الحياة لتحوم في محيط آداب العالم العربي الكبير.

إيهور أوستاش

السفير المفوّض فوق العادة لأوكرانيا

في الجمهوريّة اللبنانيّة

إيفان فرانكو وأوراقه الذّابلة

إيفان فرانكو (*1856-1916*) أحد أبرز المبدعين الأوكرانيّين بين الكتّاب والشعراء والعلماء والفلاسفة والناشطين السياسيّين. في جعبته أكثر من خمسة آلاف مادّة أصليّة، ونحو خمسمئة مادّة مُترجمة. ضمَّ مجال نشاطه الإبداعيّ الشعر والنثر والدّراما والأعمال العلميّة، ومئات المقالات ذات المواضيع المنوّعة (ثقافيّة وأدبيّة ومدنيّة وسياسيّة واقتصاديّة)، كتبها وصدرت بالأوكرانيّة والبولونيّة والألمانيّة والروسيّة.

قلّما نقع على شخصيّة شبيهة به بين أعلام الثقافة العالميّة، شخصيّة لديها هذه المروحة الواسعة المتنوّعة من الاهتمامات في حقول الأدب والعلوم والترجمات وتتمتَّع بقوّة روحيّة.

ولد الكاتب في قرية ناهويفيتش (تقع اليوم في مقاطعة لفيف)، في *27* آب/ أغسطس *1856*. والده ياكيف فرانكو كان حدّاد القرية، وكان إيفان بكره والطفل الذي طال انتظاره في العائلة.

في طفولته أرسل إيفان إلى مدرسة ريفيّة تقليديّة، وبعدها إلى مدرسة «عاديّة» (المدرسة الإعداديّة). ذكريات فرانكو عن طفولته ودراسته في مدرسة القرية ثم في الإعداديّة وجدت انعكاساتها في قصصه التي حملت طابع السيرة، ومنها «قلم الرصاص»، «ميرون الصغير»، «مدرسة العلوم هرتسيفا»، «الرسالة الجميلة» (بالألمانيّة)، وقصص أخرى.

تيتَّم إيفان فرانكو في وقت مبكّر، فقد توفيّ والده حين كان في التاسعة من عمره، ثم فقد والدته ولم يكن قد بلغ السادسة عشرة. وعن ذلك كتب: «أعي الآنَ كيف كنت طفلًا صغيرًا/ ألجُّ في عالمِ أغنياتِ أمّي/ كانت تلك الأغنيات الجمال الوحيد/ في حياتي القاسية البائسة».

أثناء دراسته في مدينة دروهوبيتش بدأت قدراته الإبداعية في الظهور، مواهب ومهارات غير عادية مصحوبة بذاكرة حديديّة (كان يجيد حينذاك ثلاث لغات).

في العام*1875* ، وبعد تخرّجه من المدرسة توجّه إيفان الشاب إلى كلّية الفلسفة التابعة للجامعة الحكوميّة في لفيف، وبعدها للتخرّج والعمل في هذه المدينة التي شهدت معظم أنشطته الإبداعية والاجتماعيّة، وعاش فيها أربعة عقود. بدأ فرانكو ينشر أعماله في العام *1874*، حين ظهرت له على صفحات مجلة «دْرُوه» (الصديق) قصيدة «أغنية شعبيّة»، وعلى صفحات المجلة عينها في العام التالي نشر قصيدته «بيتري ودوفبوشكي». في العام *1876* ظهرت مجموعته الشعريّة «أغنيات وقصص»، وكذلك ديوان أشعار قصرة بعنوان «بوريسلاف»، وصف في قصائده جوانب من حياة عمّال ناحية بوريسلاف، التي كانت تضم المدينة النفطيّة الأكبر في العالم آنذاك.

مرّ إيفان بأوقات صعبة أثناء دراسته في الجامعة، فقد اتّهم بالانضمام إلى مجموعة اشتراكيّة سريّة واعتقل. ومع أنّ التّهمة كانت مجرّد تلفيق، إلا أنّه قبع في الاعتقال عشرة أشهر. وقد خلّف الاعتقال وراءه ذكريات ثقيلة وانحرافًا في صحّته، وكان له تأثير على مستقبله ومصيره. نشر إيفان في العام *1887* مجموعته الشعريّة «من القمم والوهاد»، وتضمّنت قصائد كان قد كتبها خلال عقد من الزمن. وفي الوقت عينه كان إيفان يعمل على كتابة الأعمال النثرية الطويلة مثل روايات «بوريسلاف يضحك»، و «لا تقتحم المجهول»، و»الدروب»، و «في سبيل الوطن»، و «أعمدة المجتمع»، بالإضافة إلى أعمال دراميّة لعلّ أهمّها مسرحيّته الشعريّة «السعادة المسروقة». وفي السنوات اللاحقة ظهرت مجموعته الشعريّة الدراميّة «الأوراق الذابلة» وديوان «زمرّدتي»، ومجموعته القصصيّة القصيرة «عندما كانت الوحوش تتكلّم».

ومن الأعمال الفلسفيّة للكاتب، والتي ظهرت على شكل قصائد طويلة، «الجنازة»، و»موت قايين»، و»موسى»، والتي تعتبر من أفضل الأعمال الفلسفية، ليس على مستوى أوكرانيا فحسب، بل على مستوى الأدب العالمي كله.

كانت مروحة اهتمامات إيفان فرانكو العلميّة واسعة للغاية، من السياسة إلى الاقتصاد والفلكلور والتاريخ والأدب. وقد دافع في العام *1892* عن أطروحة الدكتوراه في جامعة فيينا الحكوميّة، والتي كانت مكرّسة لدراسة الرواية الروحيّة المسيحيّة القديمة.

في السنوات الأخيرة من حياته، عانى إيفان الكثير من آلام داء المفاصل، ففي العام *1908*، شلّ المرضُ كلتي يديه، وحرمه من القدرة على الكتابة. ومع ذلك استمرّ الكاتب في متابعة العمل بعون مساعدين حتى آخر أيام حياته. وكان قد انخرط في العمل على الترجمات في تلك الفترة وكتابة البحوث العلميّة. توفي إيفان فرانكو في *28* أيار/ مايو *1916* في لفيف.

في المحصّلة، أصدر إيفان فرانكو في حياته *220* كتابًا من تأليفه، بينها، عشر مجموعات شعريّة و*18* مجموعة من القصص القصيرة، ومجموعات من الأشعار الطويلة والروايات والمسرحيّات. وتُرجمت أعماله إلى أكثر من ستين لغة حيّة حول العالم.

لم يفقد فرانكو تفاؤله يومًا، على الرغم من الصعاب، وتلخص أبياته هذه المعاني، يقول: أيها النّاسُ.. أيها الناس/ أنا أخٌ لكم/ أنصحكم أن تعبّوا من الحياة/ وأقدّم دماء قلبي/ مشورة تغسل أحزانكم/ وما لا يمكن للدماء أن تمحوه/ فلتحرقه النّار/ كافحوا في سبيل العيش/ وتذكّروا أنّكم أحياء».

**

لمجموعة «الأوراق الذابلة» التي تضمّ أشعار إيفان فرانكو الحميمة مكانة خاصة في إبداع هذا العبقريّ، ومنها تستشفّ الدوافع التي طبعت سيرته الشخصيّة. في إحدى رسائله، اعترف إيفان لصديقه أ. كريمسكي بأن علاقته بالنساء كان لها تأثير كبير على حياته وأعماله. فقد عرف مذاق الحبّ مع ثلاث نساء، هنّ، أولغا روشكيفيتش، ويوزيفا دزفونكوفسكايا، وسيلينا جوروفسكايا. ولكل واحدة منهنّ نصيبها من أشعاره، تحديدًا في مجموعته «خريطة الحبّ» وفي قصّته «مانيبولياتانكا»، وبطبيعة الحال في مجموعة قصائده الغنائيّة «الأوراق الذابلة».

صدرت المجموعة في العام *1896*، وهي قصائد تجمعها وحدة موضوعيّة، تشكّل في المجمل دراما غنائيّة، كما أسماها فرانكو. وتتجلى عناصر السيرة الذاتيّة الأكثر وضوحًا في المجموعة عبر قصيدة «مُنحتُ الحُبّ في عُمري ثلاثًا»، وفيها يتحدَّثُ الشاعر عن حبِّه لثلاث نساء: فقد ظهر «كزنبقة بلون الطّهر أولاهنّ»، «براءة طفلةٍ للعيشِ مُمتنّة»، وهي حبّه الأول وأخت صديقه أولغا روشكيفيتش. أمّا الثانية، «ووسطاهنّ مِن فخرِ الأميراتِ/ كما القَمَر الوحيدِ شُحوبُها عاتِيْ/ مَنَزَّهةٌ مُمَنَّعَةٌ بِفيضِ بَهاءْ»، فكانت الفتاة الأرستقراطيّة المريضة يوزيفا دزفونكوفسكايا، التي رفضت حبّه وماتت في سنّ مبكّرة. الفتاة الثالثة كانت «ذاتُ الحُسنِ وَحشيَّةْ.. تبثُّ الرُّعبَ في قلبِيْ تصبُّ بَلاءْ»، «كمَا العَنْقَاء في صدريْ الشقيْ رَبَضَتْ»، وهي سيلينا جوروفسكايا ذات العواطف الجيّاشة، والتي لمْ تتمكن منْ أن تتجانس مشاعرها ومشاعر فرانكو.

أما تاريخ «الأوراق الذابلة» فمثير جدًا للاهتمام، فقد قدّم فرانكو للطبعة الأولى بما يوحي أنَّه وجد دفتر يوميَّات شخص منتحر، «وقد تضمَّنت تفاصيل لا طائل منها، والكثير من أفكار التفلسف غير المحقّق، أو الانتقادات غير المفهومة»، لكنّ فيها أيضًا «مطارحُ تتَّسم بقوَّة التعبير الأدبيّ، وأخرى استخرج لها كاتبها من روحه نغمات شعريَّة صادقة» فبرَّز فرانكو تلك المطارح وأخرجها بلغة شعريَّة.

لكن في مقدّمة الطبعة الثانية للمجموعة، يسمّي فرانكو ما ذكره آنفًا بالخيال الأدبي. في الواقع، إن دفتر يوميَّات المنتحر موجودٌ بالفعل. وكان هذا الشخص معلِّمًا شابًا لم يكمل العشرين من عمره، واسم عائلته سوبرون، وكان مولعًا بالكاتبة الأوكرانيّة أولينا كرامشينكو (يوليا شنايدر)، وكان يحبّها بشدَّة وتقدَّم طالبًا يدها للزواج، لكنَّه في المقابل تلقّى رفضًا قاطعًا منها. في وقت لاحق أرسل سوبرون مذكّراته التي تضمَّنت قصائد حبّ إلى أولينا ثم اختفى.

ومن غير المعروف على وجه التحديد إن كان سوبرون قد أنهى حياته منتحرًا أم لا. وقد عرضت أولينا كرامشنكو دفتر اليوميَّات ذلك على إيفان فرانكو، الذي درسه بعناية، ووضع بعض الملاحظات على النصّ، وعلى غلاف الدفتر خطَّ بيده رباعيَّة تقول: «قلبٌ عاصفٌ/ تمزّق أشلاء/ من سيحسُدُ/ هذا المصير؟».

واليوم يُحفظ دفتر يوميَّات سوبرون في قسم المخطوطات، التابعة لمعهد تاراس شيفشنكو للآداب، في أكاديميَّة العلوم الأوكرانية في كييف. ويعتبر تأثير يوميَّات سوبرون على ديوان «الأوراق الذابلة» غريبًا بعض الشيء، إذ إن عددًا قليلًا جدًا

من التراكيب النصّيَّة تتوافق بينهما.

ذلك وتتألّف مجموعة «الأوراق الذابلة» من ثلاثة أقسام – ثلاث قبضات. في القبضة الأولى يتحدّث الشاعر عن ولادة الحبّ مع دوافع واضحة للفرح والرومنسيّة المختلطة بمشاعر القلق. وتتناول القبضة الثانية الحبّ كذلك، إلا أن صورة المحبوب فيها غير محدّدة تلامس غموض صورة المحبوب في الأغاني الشعبية. أما القبضة الثالثة فتعمّها مشاعر خيبة الأمل واليأس، وتحطّم الحواس بفعل الحزن والألم الشديد، الذي يبقي الشاعر دومًا على حافة الانتحار.

حظي ديوان «الأوراق الذابلة» بنجاح كبير فور صدوره، كما حظيت بعض قصائده بتحويلها إلى أغانٍ، بعد وضع الألحان المناسبة لها، ومنها «سُهوبي الفسيحة ثلجًا وقرًّا...»، و«يا ربّة القدّ اللطيف الآسر...»، «لماذا تزورينني في المنام...»، وغيرها. وقد نالت تلك الأغنيات شهرة واسعة آنذاك.

كما تُرجم ديوان «الأوراق الذابلة» إلى الكثير من اللغات، والآن، ها هو الكتاب الذي بين أيديكم، يضمُّ الترجمة العربيّة الأولى في العالم لأشعار إيفان فرانكو، وهو يواكب رحلة القارئ العربي الأولى في رحاب العالم الشعري الذي نسجته ريشة هذا المبدع الأوكرانيّ.

سولوميا فيفتشر

متحف إيفان فرانكو الأدبي التراثي في لفيف

تقديم المعرّب

تعرّفت إلى أعمال إيفان فرانكو قبل أكثر من ربع قرن، حين كنت على مقاعد الدراسة وكانت أولى القصائد التي قرأتها له «أغنيتي» التي اعتبرتها آنذاك وصيّة الشاعر، وفي العام الماضي، حين عملت على سلسلة مقالات بعنوان «عيون الشعر الأوراسيّ المُغنّى» ونشرت عددًا قليلًا منها، عدتُ إلى تلك القصيدة من جديد، لكن بعين أكثر خبرة ومعرفة أكبر بأوكرانيّة الربع الأخير من القرن التاسع عشر*. وكنت محتارًا بشأن فرانكو، الكاتب والباحث والشاعر واللغوي الكبير، الذي تُسمّى المدن والشوارع والصروح العلميّة باسمه، وتنتصب تماثيله في شتّى أنحاء أوكرانيا، وتحمل أوراق العملة والطوابع البريديّة رسمه... ذلك والقارئ العربيّ لا يعرف شيئًا ذا بال عنه، ولمْ يُترجم له من لغته الأمّ إلى العربية شيء! ثمّ كان أن حظيتُ بزيارة إلى «المتحف الوطني للأدب الأوكراني» في كييف ربيع العام الحالي، وقد كان همّي آنذاك أن أقف على آثار العالم الأكاديمي أغاتانغل كريمسكي، الذي كنت قد تشرّفت بترجمة مجموعته «قصص بيروتية» إلى العربية**، إلا أنّ جولتي الغنيّة في رحاب المتحف، التي قادتها الصديقتان الأستاذتان ميروسلافا تاراخان وأوكسانا جوفانيك، استوقفتني فيها أعمال شاعرين كبيرين هما ليسيا أوكراينكا بحلّتها المصريّة وإيفان فرانكو بعالميّته، فعقدت العزم على تلمّس أعمالهما ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

قبيل تقديمي عرضًا عن ترجمة قصص أغاتانغل كريمسكي البيرونيّة في «مكتبة ف.فرنادسكي الوطنية الأوكرانيّة» في كييف، في آذار/ مارس الماضي، كانت الباحثة في «متحف إيفان فرانكو في لفيف» الصديقة الأستاذة سولوميا فيفتشر قد بادرت إلى الاتصال بي، منطلقة من الصداقة المتينة التي جمعت أ. كريمسكي بفرانكو، ونهوضهما بمؤازرة رفاق كثر باللغة الأوكرانيّة الحديثة على عتبة القرن العشرين. وقد وضعت فيفتشر بين يديّ جملة من المصادر الإلكترونية التي تتضمن أعمالًا متنوعة لفرانكو. ولمّا كنت أرغب بتعريب كتاب كامل لا في قصائد متفرّقة، اخترت «الأوراق الذابلة» التي أرادها الشاعر دراما غنائيّة، ولا أعرف اليوم مدى صوابيّة هذا الخيار، إذ إن ما كان للوهلة الأولى دراما غنائيّة يتخطّى ذلك إلى حدود الكارثة العاطفيّة التي يختتمها الشاعر بانتحاره. قرأت القصائد واحدة تلو أخرى للوقوف على إمكانيّة الترجمة بعين الباحث متلمّسًا الحقول اللغويّة ومدى صعوبتها، والمجازات والاستعارات والكنايات والجناسات والقوافي، وصولًا إلى أبنية الصور الشعريّة في القصائد.. إلا أن قراءة أخرى بعين قارئ مستمتع بالشعر السلافي هي التي حسمت الخيار، وعزمتُ إثرها على ترجمة هذه الأشعار التي نظمها فرانكو على مدى عقد من الزمن ونشرت قبل مئة وعشرين عامًا.

وبعد غرقي في أشعار المجموعة لشهور بين بحث وترجمة، وخروج التعريب على ما هو عليه اليوم، يمكنني أن ألخص منهج تعاملي مع القصائد في البحث والترجمة والنظم والتحرير على النحو التالي:

1. قمتُ بدايةً بترجمة نثرية*** لكامل محتوى مجموعة «الأوراق الذابلة»، والتي تضمّ *61* قصيدة، موزّعة على ثلاث رزم (يسمّيها الشاعر «قبضات» أو «ضمّات»)، وتحتوي الرزمة الأولى *21* قصيدة، أما الأخريان فتضمّ كل واحدة منها عشرين قصيدة. لكنّ التّرجمة الأولى تبعتها ترجمة ثانية بعد التأمل في كل قصيدة، ووضع علامات استفهام على تراكيب وتعابير استخدمها فرانكو، وهوامش بشأن ما كان مستغلقًا عليّ من المفردات.

---

* . انظر: الحوار المتمدن، العدد *5324* بتاريخ *24* تشرين الأول/ أكتوبر *2016*، بعنوان "عصفورة إيفان الجريحة بصوت ديانا الملائكي".

** . *1897* قصص بيرونيّة، أغاتانغل كريمسكي، دراسة وترجمة: عماد الدين رائف (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط1: كانون الثاني/ يناير *2017*).

*** . تنشر الترجمة النثريّة لقصائد الديوان تباعًا إثر صدور الكتاب على مدوّنة تفاعليّة خاصّة به، تُرحّب بالآراء والملحوظات والمقترحات، وتضع القارئ في رحاب المصادر المتنوعة للترجمة ومراجع البحث. رابط المدوّنة: *https://ifrankoar.wordpress.com/*

2. لتذليل عدد من العقبات التي حالت دون الوقوف على مُراد فرانكو في بعض المقاطع الشّعريّة التي تميّزت بتقلّب مزاج الشاعر والتركيز والانفعاليّة بالإضافة إلى التشابيه البعيدة عن اللغة العربية، استعنت بمراجع أهمّها الذخيرة الكبيرة التي لديّ من ملحوظات وقصاصات جمعتها أثناء عملي الطويل على نصوص أ.كريمسكي خلال الأعوام الثلاثة الماضية، ثم الأسئلة المباشرة في محادثات طويلة مع الأستاذة فيفتشر التي تفضّلتْ بالتقديم لهذا الكتاب، ذلك إلى جانب القواميس الأوكرانيّة التي تعود إلى تلك المرحلة وعلى رأسها ما أشرف عليه أ.كريمسكي*.

3. جمعت عددًا كبيرًا من الملحوظات والهوامش بشأن أسلوب فرانكو وبنية جملته الشعرية، وقد استعنت بمراجع مطبوعة ومؤتمرات وموسوعات إلكترونية أوكرانيّة، وتجدر الإشارة هنا إلى وثائق مؤتمر بشأن «الأوراق الذابلة» عقد في لفيف وصدرت أعماله في كتاب حصلت على نسخة مصوّرة منه بعنوان «أوراق إيفان فرانكو الذابلة: نصوص ومواد وبحوث، صدر بعناية بروفيسور العلوم اللغوية في «جامعة لفيف الوطنية المسماة باسم إ.فرانكو» في العام ٧٠٠٢، وكان هذا المرجع خير هاد لي في بحثي.

4. قلّلت قدر الإمكان من الهوامش التي ستظهر في حواشي هذا الكتاب، مقتصرًا على شرح مفردة أو أسماء العلم أو أماكن جغرافية، تاركًا للقارئ تلمّس المجازات الأوكرانيّة الواردة في القصائد.

5. اخترت الأوزان العربيّة الملائمة لقصائد فرانكو، التي كانت تتبع مزاجه في الأوزان والقوافي، وتختلف في مدى تكثيف الصور فيها بين السرد الوصفي حينًا وتعقيد العبارات أحيانًا وإضفاء أبعاد فلسفية عليها أحيانًا أخرى. ولم أر حرجًا في الخروج عن أوزان الخليل إلى المحدثة أو التفعيلة، أو حتّى كسر القافية لتوائم مراد الشاعر.. وآمل أن أكون قد وفّقت في ذلك.

إني وبعد بذل جهدي في ترجمة «الأوراق الذابلة» ونظمها شعرًا وتحريرها إلى جانب التقديم والتعليق عليها حيث اقتضى الأمر، لا أدّعي أنّها خرجت بلا شوائب، بل جلّ ما يمكنني أن أدعيه هو أنني عكفتُ على خدمة نصوص إ. فرانكو بكلّ جوارحي خلال شهور طويلة مضنية للوقوف على مراد الشاعر في كل شاردة وواردة في ثناياها، ثم نظمتها شعرًا لتصل إلى كلّ قارئ عربيّ متذوّق للشعر. وأدرك عميقًا أن الشعر المترجم ليس الأصل وأن بينهما «خصوص وعموم من وجه»، وهذا «الوجه» هو ما سعيت جاهدًا في مساحته لإخراج الأشعار تحت مظلّة مصطلح «من وحي» إيفان فرانكو.. فإن كنتُ قد قصّرت رحم الله من أهدى إليّ عيوبي. والكتاب الذي بين أيدينا اليوم هو الترجمة العربية الأصيلة الأولى للشاعر، والذي أتشرّف بتقديمه إلى القارئ كأحد المداميك المتواضعة في بناء جسر التواصل الحضاريّ بين الشعبين الأوكراني والعربي.

ذلك ولم يكن هذا الكتاب ليجد طريقه إلى النّور لولا أصدقاء أحاطوني بعنايتهم، وأخصُّ بالشكر السفير الأوكرانيّ في لبنان إيهور أوستاش وعقيلته مارينا هريميتش اللذين احتضنا مشروع تعريب «الأوراق الذابلة» من ألفه إلى يائه، وكذلك الرفيق حسّان نُون صاحب «مكتب نون للترجمة» الذي كان خير داعم لي في أبحاثي وترجماتي وهذا الكتاب أحد ثمارها. كما أشكرُ الرفيق محمد بدران وزوجته ليدا اللذين زوداني بموادّ هامّة للدراسة والترجمة، ورئيس «نادي خريجي أوكرانيا في لبنان» ذوقان جرماني والرفاق في «جمعية متخرجي جامعات ومعاهد الاتحاد السوفياتي» على دعمهم، والرفيقين رولا صليبا وعصام سحمراني على قراءتهما المخطوط وتزويدي بملحوظاتهما؛ وكذلك أشكر «اتحاد المُقعدين اللبنانيين» الذي أنتمي إليه، والذي كان أحد مشاريعه سببًا في زيارتي أوكرانيا ما فتح أمامي أبواب البحث؛ وجزيل شكري إلى كلّ من قدّم لي ملحوظة أو مشورة في سبيل صدور هذا الكتاب.

عماد الدين رائف

بيروت، تشرين الأول/ أكتوبر 2017

---

* . معجم روسي - أوكراني، أ. كريمسكي (رئيسًا للتحرير)، هيئة التحرير: ف.م.غانتسوف، ع.ل.غولسكيفبتش، م.م.عرينتشكوفا (كييف: أكاديميّة العلوم الأوكرانيّة - لجنة وضع قاموس اللغة الأوكرانيّة الحيّة، ط1، *1924*).

الأوراقُ الذَّابِلة
(1896 – 1886)

- دراما غنائيَّة -

مقدّمة

بطل هذه الأشعار، المتمثّل بـ «أنا»، شخصٌ ميت. كان هذا الإنسان ضعيفَ الإرادة مسكونًا بأوهام ومشاعر عميقة مقرونة بقلّة حيلته في مواجهة الحياة العملية.

والقدرُ، بطبيعة الحال، يسخر من أناس كهذا. للوهلة الأولى، هم يبدون وكأن قدراتهم وقواهم ومساعيهم إلى الكدح كبيرة، لكنَّهم لن يقوموا يومًا بما هو نافع، ولن يصلوا إلى أهداف سامية، ولن ينالوا من الحياة شيئًا يُذكر. انفعالاتهم غير مرتّبة لعين غريبة، تُحدث آلامًا كبيرة فيهم، إلَّا أنَّهم يحشرون الطاقة الكامنة، في تلك الانفعالات، في زاوية مظلمة من أنفسهم بعيدًا عن أنظار الآخرين، ويحملونها معهم ويرحّلونها من يوم إلى يوم، مُرهقين بذلك أنفسهم والآخرين من حولهم. وقد قضى بطل هذه الأشعار حاملًا مخزونًا متواضعًا من السعادة، حيث اتَّخذ قرارًا بوضع حدٍّ لحياته في خطوة حاسمة لمرة وحيدة، وأطلق رصاصة في جبينه.

لم يكن أحد ليدرك سبب هذا القرار غير المتوقَّع، ذلك أنَّ صديقنا المسكين لم تكن لديه وسيلة لإخبار أحد عن شخصيَّته، عن خططه وآماله أو عمَّا يعتمل في صدره، أو عن مدى صبره. وبعد بضعة أشهر مرَّت على انتحاره، وصلت يوميَّاته إلى يدي في دفتر ذي أوراق مجعّدة ضاعفت حجمها الرطوبة، وكان قد كتب تلك اليوميَّات على دفعات في الليالي.

وقد عكفت على مطالعة معاناته الطويلة حتى فرغت منها. مذكّراته غير المرتّبة تلك، بدت للوهلة الأولى قصائد غنائية، وزفرات أشواق، ولعنات ومآسي، أمَّا ما تضمّن منها أحداثًا واقعيَّة فكان قليلًا جدًا.

وقد فهمتُ منها أنَّ الراحل أغرم بفتاة ما، وقد دغدغت أحلامه وأذكت آماله (يبدو أنَّها كانتْ تعرف الرجل الذي تحتاج إليه)، وبعدها تعذَّب من حبِّه لها سنوات طويلة، قبل أن تتزوَّج هذه الفتاة من آخر، وحينذاك انتحر.

وبالنظر إلى أنَّ ما ذكرتُه هو المادة الفعلية لليوميَّات، فقد عكفت على دراستها مجدَّدًا، كلّ جزء منها على حدة. وقد تضمَّنت تفاصيل لا طائل منها، والكثير من أفكار التفلسف غير المحقّق، أو الانتقادات غير المفهومة. لكنْ بين فصول اليوميَّات برزت مطارحُ تتَّسم بقوَّة التعبير الأدبيّ، وأخرى استخرج لها كاتبها من روحه نغمات شعريَّة صادقة. وقد أحدثتْ فيَّ تلك المطارحُ انطباعات قويَّة وبعد تأمّلي فيها وفي الحالة النفسيَّة لكاتب اليوميَّات، حاولتُ أن أبرِّز تلك المطارح وأخرجها بلغة شعريَّة وأبثَّها إلى العالم.

لماذا؟ وما الجدوى المتوخَّاة من الجهد في إعادة إنتاج قبضات من الأوراق الذابلة وإخراجها إلى الناس؟ أستروي بضع قطرات مشبعة بالتشاؤم، أو على الأرجح بالإحباط واليأس، عطش دورة حياتنا الحديثة؟ أليس فينا ما يكفينا من الخير العميم بدونها!

ولكن من يعلم! – حدَّثتني نفسي – أيمكن أن يكون كل هذا الحزن كبقعة جدريّ، تُعالجُ قبل انتشار الطفح؟ أيمكن أن تقدِّم صورة العذاب والحزن الصادح في الروح بعض علاج لروح مجتمعنا؟ لقد ذكّرني ذلك بفيرتر* غوته. وتذكّرت تلك الكلمات التي كتبها غوته على أحد نِسَخ كتبه، قبل أن يرسل بها إلى أحد معارفه، وبها أقدِّمُ مجموعة الأشعار هذه للأجيال الشابَّة: *Sei ein Mann und folge mir nicht nach*!**

إيفان فرانكو، *1896*

---

* آلام فيرتر *(Die Leidrn des jungen Wherthers)*: رواية - رسالة، وشبه سيرة ذاتية مرحليّة للكاتب الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته *(1749-1832)*، وهي أولى رواياته. نشرت للمرة الأولى سنة *1774* ثم بطبعة منقّحة سنة *1787*. وللرواية قصّة، فبعد حصول غوته على إجازته في القانون من جامعة ستراسبورغ سنة *1771*، انتقل إلى فتزلار، مقر المحاكم الإمبراطورية ومحكمة الاستئناف العليا. وهناك عاش مأساة غرامية حين وقع في حبّ الفتاة شارلوت، التي كانت خطيبة أحد أصدقائه، وتألّم من حبّه لها، فقام بتخليدها في روايته التي يُقدِم بطلها فيرتر على الانتحار في ختامها.

** كن إنسانًا شجاعًا ولا تقتفي أثري! (بالألمانيّة).

القبضة الأولى

(1893 - 1886)

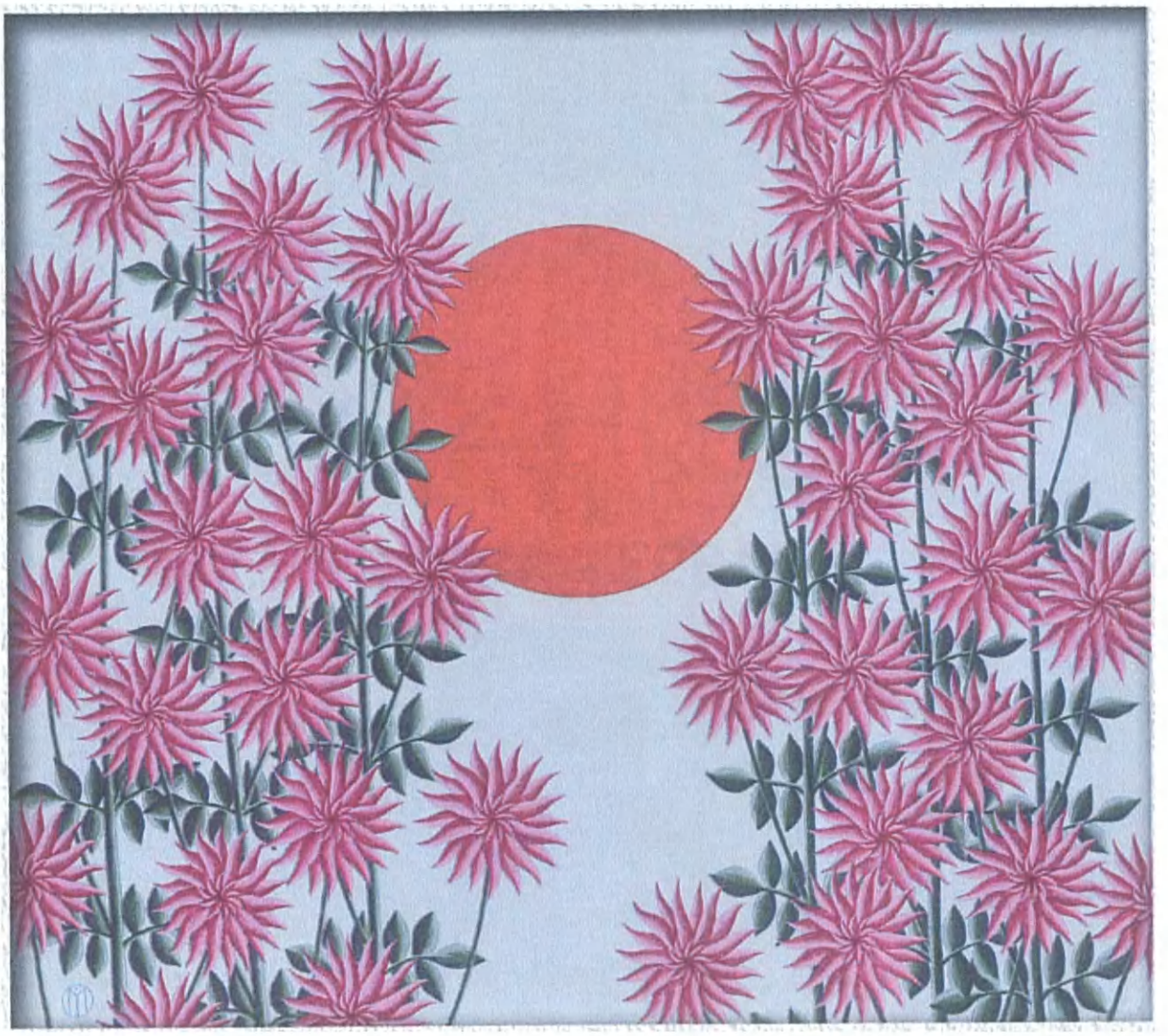

I

منْ بُؤرة حُزنٍ تحتَ رمادْ
بُعثتْ كالموجةِ أغنيتِيْ
هيَ شُعلةُ نيرانٍ وعنادْ
كَعَبَاءِ الشُّهبِ المُنْفلِتِ

ما كان هدوءًا، دهرًا سادْ
دبَّتْ فيهِ الروحُ شرارةَ حبٍّ
مَنحتهُ حياةً بعدَ رُقادْ
نثرتْ باللَّحْنِ غُبار الكربْ

كمدتْ عمرًا يخفِيهَا رمادْ
يَخْبُو فِيها ألمُ الهجرانْ
هبَّتْ ريحٌ نفضتهُ سوادْ
هلْ تقدرُ أنْ تطفِئها الآنْ؟

لن أطفئها! لن أطفئها!
فسَتَسْمُو رُوحي بالنِّيرانْ
وسيُحيي قَلبيْ مَاضِيها
وستمحُو أغنيتي الأحزانْ!

II

ما السرُّ وقدْ جُذِبْتُ حتَّى الأَلَمِ
يا ساحرتيْ بثغرِكِ المُبْتَسِمِ
ما إنْ ببريقِهِ يُداني حُلُمِي
حتَّى أغدوْ مُرَفرِفًا كالطَّيْرِ

القلبُ بلا ربيعِ عُمرٍ رقدا
والزَّهرُ بِحَقلهِ سرابٌ بَعُدا
نفسيْ تاقتْ لغضِّ حبٍّ وُلِدا
يروي بِرِضابهِ شُقوقَ الصَّدرِ

روحٌ عُتِقَتْ إلى مَدَى الحرِّيَّةْ
مِنْ ظُلمةِ سِجْنِها إلى البَرِّيَّةْ
في بهْجَتِها نقيَّةً مرضيَّةْ
ردَّتْ عُمريْ إلى ربيعِ العُمُرِ

إنْ سِرتُ إليْكِ صارَ قلبيْ بِيديْ
خوفٌ بِدميْ ورعشةٌ في جسدي
من لَحظِكِ إنْ أصابَ سهمٌ كبدي
أهويْ أرضًا بسجدةٍ من فوري

إنْ أنتِ همَسْتِ لي أضمُّ الهمْسَا
أهتزُّ برعشَةٍ تُطيحُ الرأسَا
تغمرنيْ سعادةٌ تصدُّ كلَّ أسى
يجري دمعِيْ وعُذرُهُ من عُذري

لمْ تمضِ على لقائنا أيَّامُ
بالكادِ عرَفْتِنِي... وليْ أحلامُ
أن نحيَا معًا، أمْ انَّها أوهامُ
والفُرْقَةُ منْ قضائنا والقَدر

يمضي عُمُريْ وفي ظُنُونيْ أسريْ
لا أعلمُ ما يكونُ يومًا أمريْ
لكنَّ يقينَ قلبِ منْ في الأَسرِ
أنْ يَحمِلَ وجهَكِ البهيْ للقبرِ

III

أنَا لا أخافُ اللهَ والشَّيطانَ
هيَ حُرَّةٌ روحيْ كنورِ صباحِ
أنا لا أخافُ الوحشَ والغيلانَ
وأواجهُ الدُّنيا بدون سلاحِ

أنا لا أخاف العرشَ والتيجانَ
وجنودَه يومَ الوغى وبيارقْ،
وفخاخَ قومِ الغدرِ، والغربانَ،
ووشايةً من عاذلٍ ومنافقْ...

غضبٌ مَلا عينيكِ لا أخشاهُ
متألّقًا، متوهِّجًا، ظمآنَ
في الوجنتين مقامُه وحِماهُ
بالأرجوان غزاهما ألوانًا

لكنَّ روحكِ إنْ تَمالكها الأسَى
والحزنُ سَيطر في المحيَّا والتأمْ،
واهتزَّتِ الأعصابُ من كربٍ رسا
فابيضَّتِ الشفتانِ من عضِّ الألمْ،

والحلقُ ملتهبٌ ويحتجزُ الوجعْ
ويداكِ تنسدلانِ، من فقدِ اليقينْ،
عيناك تمتلئانِ من يأسٍ نَزعْ،
تتطلعانِ إلى المدى: هل من معينْ؟

يجتاحُني رعْبٌ يطيحُ هدوئي
ودبيبُ عثٍّ باردٍ يغشاني
ألمي بلا وصفٍ، بدونِ رجاءٍ
والشرُّ مجتمعًا يهدُّ كياني.

IV

يا فاتِنَتي أرى قُلَيْبي تَعِبَا
في عِشقِكِ غارقًا يُريني العَجَبَا
إنْ أنتِ نأيتِ زدتِ فيهِ الرُعْبَا
يغدو مُتألِّمًا شديدَ الحُزنِ
يا فاتِنَتي.. وما عَرَفتُ السَّبَبَا

أأمامَ جمالِكِ الفخورِ انغلبَا؟
أمْ صوبَ بريقِ ناظريْكِ انجَذَبَا؟
فرماهُ ككلِّ منْ بصدقٍ سُكِبَا،
وَجَمَعْتِ بحاصِدَيْك كلَّ الفتنِ.
يا فاتِنَتي.. وما عَرفتُ السَّبَبَا

إنْ وجهُكِ غابَ هامَ قلبيْ طَلَبَا
ودميْ يغليْ أراهُ ينويْ الهَرَبَا
لا آسَفُ إنْ هدرتُهُ فانسكبا
لكنَّ غرورِكِ الشقي يؤلمني،
والعقلُ إذا سخرتِ لا يخذُلُني،
عنْ عَجرفةٍ وفتنةٍ يُبعدني...
يا فاتنتي أيكفيْ هذا سبَبَا؟

٧

تَلاقيْنَا على الأرضِ الغريبَةْ
دَقائقُ صُدْفَةٍ جَمَعَتْ خُطانا
تحادَثْنَا وُقوفًا وافترقنَا
هنالِكَ لمْ يَكُنْ أحدٌ سوانا

سألتُكِ عنْ أمورٍ لمْ أردْهَا
مجرَّدَ كَوْنها لَمَعَتْ بِذهنيْ
بلا معنىً، ولكنْ شئتُ أخرى،
ولمْ تخرجْ، لسوء الحظِّ، منِّيْ

حكيْمًا كانَ ردُّكِ في المُقابِلْ
حَدِيثُكِ خُضْتِهِ حُرًّا ذلولًا
وكانَ فِراقُنا وسطَ الضَّبَابِ
بلا أدنى مُصافحَةٍ عَجُولًا

بهزَّةِ رأسِكِ انفضَّ اللقاءُ
ووقْعُ خُطاكِ ينأى في الظِّلال
يُلاحِقُ ناظرايْ صدى ابتعادِكْ
لأبقى جامدًا وسطَ الذُّهولِ

كُلَيْمَاتٌ مُدَفَّأةٌ بِصوتِكْ،
مرَجِّبَةٌ، أكرِّرُها زمانا
شعرتُ كأنَّ فِردَوْسيْ تلاشى
كما لوْ أنَّهُ قَدَرٌ وكانَا

خسِرتُ إذن! بفعل يديْ أضَعْتُكْ
لأسكرَ بالأسى والعِشقِ تارَةْ
أنا في الحبِّ ميؤوسُ الأمانيْ
تضجُّ الرُّوحُ منْ ثِقْلِ الخسارة!

VI

يا أنتِ، يا حُبِّي الوحيدِ حَرَمْتِنِيْ
منْ أنْ تُمَتِّعَنِيْ الحياةُ بِوَصلِكِ
يا أنتِ، يا سرَّ التَّسَمُّمِ فِيْ دَميْ
والصدرُ منْ يَشْفِيهِ؟ مَعْلُولٌ بِكِ!

يا أنتِ، يا لحنًا بحُلمٍ مُلهمٍ
أشقى لأمنحَهُ الكلامَ بلا سبيلْ
يا أنتِ مأثَرتي الَّتي أسعَى لها
إنْ فِضْتُ بالإيمانِ والتمعَ الصقيلْ

هوَ ذاكَ حبُّك رغبتي المدفونَةْ،
أوْ كانطفاءِ مشاعريْ المجنونَةْ،
لحنٌ بهيٌّ لمْ يُغَنَّ، وأدْتُهُ،
أوْ جرأةٌ مكلُومَةٌ وسجينَةْ

كنزيْ الثمينُ وكُلُّ مَا عِنْديْ،
لهبٌ شقيٌّ حارُقُ الوَقدِ،
موتٌ يحرِّرُنِيْ من الأحزانِ،
هوَ ذاكَ حبُّكِ يا شَذا الوردِ

VII

عيْنَاكِ يمُّ ساكنٌ
بسكونهِ مُرهَقْ
أحزانُ قلبيْ تَختَفيْ
كهَباءةٍ تَغرقْ
في بَحرِ عيْنيْكِ

كجُمانتينِ تلألؤًا
منْ قاعهِ الثملِ
عَبْرَ الرموشِ تراسلانِ
القلبَ بالأملِ
ما سرُ عينيكِ؟

16 نيسان/ أبريل *1883*

VIII

بِكُلِّ هُدوءٍ بِصَوتٍ رتيبْ
تقُولينَ ذاك الكلامَ الرَّهيبْ
بِحَزْمٍ وجِسمُكِ لمْ يرتَعِشْ،
ألمْ يَخنُقِ القلبَ ثِقلُ الوجيبْ!
تقولينَ: لا تَتَأمّلْ بِشيْ!

وقولكِ إثمٌ ألا تَعلمينْ؟
جريْمةُ قتلٍ بحقِّ الحَبيبْ
وصدمةُ عنفٍ لفِكري الرَّزين
أوجدانُكِ اهتزَّ أم لا؟ غريب!
تقولينَ: لا تَتَأمّلْ بِشيْ!

فكيفَ أعيشُ، ألا مِنْ أملْ؟
ألا مِنْ مغيثٍ؟ ألا من مُجيبْ؟
أنادي الأراضين، نوُرَ السماء،
أنادي الأنامَ... ألا من مُجيبْ؟
فلا روحَ عِنْدِيْ.. غُبَارٌ أنا،
ولا ماءَ عِنديْ وجسميْ يذوبْ
تقولينَ: لا تَتَأمّلْ بِشيْ!

بقولِكِ حلَّ الجحيمُ بصدريْ
ويغليْ دميْ فائرًا باللهيبْ
ودودةُ جُوعٍ تطيحُ دماغي
وتنخُرُ في ثناياه الثُّقُوبْ
تقولينَ: لا تَتَأمّلْ بِشيْ!

أنا لا أُصدِّقُ، ذلك غشٌّ
تصبّين ماء الحياة السليب
ليَغدُو شرابي، تهبِّينَ فورًا
تقولين «سُمٌّ»! أليس عجيب!

أهدَّدْتِ روحي؟ أنا لا أُصدِّقْ
فلحظة قولك حلَّ الشُحُوبْ
وأغمَضتِ عيْنَيْكِ مثل الميمُوزا*
فذلك قولٌ أراهُ كذوبْ

أراهُ خداعًا، أراه تكبُّرْ
فأنتِ مزيجٌ لصدقٍ وطيبْ
تكبَّرْتِ، أفهمُ أنَّكِ ثُرتِ
وخيَّم فوقَك عتْمُ الضَّبَابْ

أنا الآن أقوى غزيرُ المشاعرْ
أبدِّدُ سطوَ الضَّبابِ الكئِيبْ
وتقوى الحرارةُ تعطي الشرارةْ
لفكري، فيمكنُني أن أجيبْ.
تقولينَ: لا تَتَأمّلْ بِشيْ!
أقول: ثقي، واثبتي في الخطوب!

* ميموزا: نوع من الشجيرات المزهرة اسمه "ميموزا بوديكا"، تنطوي أوراق زهوره حين تُلمس أو تتعرّض للحرارة. يطلق عليه اسم "المستحيّة" في بلاد الشام.

IX

لا شيءَ آمُلُهُ ولا أبْغيْهِ
لمَرِ لا أمُوتُ صبَابَةً وهيَامًا
فإذا نظرتُ إليْكِ لا أقوى على
إغماضِ أجفانِيْ وفضتُ غرامًا
وأنَا أحبِّكُ كيف أخفيْ لوْعَتِيْ
حتَّامَ أحيَا في العذابِ.. إلامَ؟

الشَّمْسُ تُشْرِقُ في ابتسامة ثغركِ
فتُلأْلِئُ المَرْجَ المُندَّى بالضِّيَاءْ
خدَّايَ يَلتَهبان حُمرةَ جَمْرةٍ
غمَّازتايْ رهِينَتَا حرِّ الرَّجَاءْ
لا شيءَ آملُهُ... ولكنْ رغبتي
حلمٌ ينادِيْنيْ ويوغِلُ في النِّداءْ:
هيَ شهْوَةُ الدُّنْيَا الَّتيْ نَحْيَا بِها
نسعى لعيشٍ.. لا لموتٍ في الخَفَاءْ

نَحْيَا وقدْ نَمْضيْ لكلٍّ دَربُهُ
هُوَ ذَا النَّصِيْبُ وربَّمَا أمرُ القَدَرْ
فإنِ التَقَيْنَا كانَ أمرًا رائعًا
وإنِ افترقَنَا لنْ أنوحَ على الأثَرْ

X

سُهُوبِيْ الفَسِيْحَةُ ثَلْجًا وقَرًّا
تُغطِّكِ أكفانُكِ البيضُ طُهْرًا
وحيدٌ بحُضنِكِ تحتي حِصانيْ
وقلبي بقبضَةِ وَحْشٍ، أُعاني،
امنَحِيْنيْ رِحَابَ الإرادةِ حُرًا

حصاني.. رفيقيْ كمَا البَرْقُ طِرْ بِيْ
وسابقْ رياحًا عَوَتْ فيْ السُّهُوبِ
لعلِّيْ أخَلِّف آلامَ قلْبِيْ
ورائِيْ، وأهجُرُ كلَّ الكُرُوبِ
وأغزو رِحابَ الإرادَةِ حُرًّا

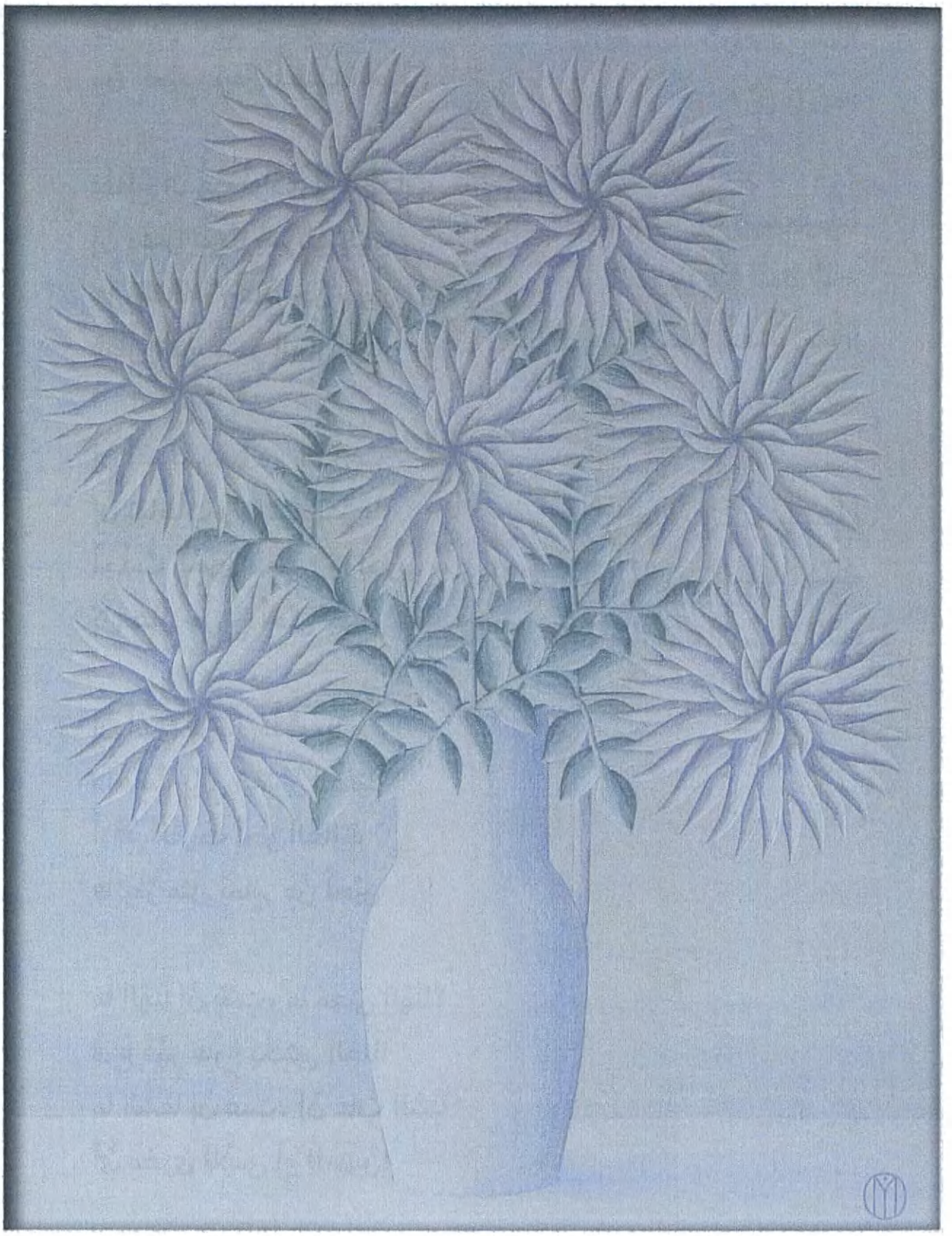

XI

إنْ تَلاقَيْنَا بدربٍ، كلَّ حينْ
تَهجُرينَ الدَّربَ عنِّيْ تُعْرِضِيْنْ
رُبَّمَا أنتِ على حقٍ ومَا
منْ نَصيْبٍ يَجْبُرُ القلبَ الحزيْنْ

نقْطَعُ الدَّربَ فُرادى في الضَّبَابْ
إنْ يسَارًا سِرتُ يُغريكِ اليَمينْ
عزَّ مَلقانَا – وهلْ نحنُ سوى
قطرتيْ ماءٍ بِبَحرِ الغارقينْ!

إن تصَادفتِ بآلامِ الدُّرُوبْ
إنْ تفاجأتِ ولاقَتكِ الكُرُوبْ
أجذُبُ الحُزنَ لنفسيْ كيْ يذوبْ
كلُّ همٍّ حلَّ في أحلى جبينْ

إنْ أتَتنِيْ فرحَةٌ حلَّتْ بيَا
داهمَتْ بيْتي تباشِيْرُ الضِّيَا
أدفَعُ الفَرحةَ نَحوَ الغَاليَة
فلْتَطِرْ مثلَ يَمامٍ منْ لُجَيْن

مَا الهَنا إنْ غِبْتِ، ما مَعنى الهَنَا؟
قَرعُ قَهْرٍ فارغٍ يخْشى الغِنا!
ما الشَّقَا إنْ غبتِ، إنْ غابَ السَّنَا؟
أيُّ مغزىً للأسى أو للحنينْ!

قطرةٌ فيْ البَحرِ، غرقانٌ أنا،
نحوَ قعرٍ مظلمٍ، نحوَ الفَنَا،
أنتِ فيْ الشَّمسِ اسْرَحيْ حيثُ الجَنى،
واترُكيْ رُوحيْ بِبَحرِ الغارقينْ

XII

بِلا جَدْوَى صَغِيْرَتِيْ تضْحَكينَا
بِفَخرٍ هائمٍ في كبْرِيَائِكْ
أسُخريةٌ حَوَتْ معنى حياتِك؟
ومنْ يَدْريْ؟

أذُلٌّ يَحتويْ كَنْزَ السَّعَادةْ
خفيًّا كامِنًا قيْدَ الوِلادة؟
أرَفضٌ يُشعِلُ الحبَّ الدَّفينا؟
ومنْ يَدْريْ؟

أينْفَعُ إنْ تَذَكَّرْتِ التَّعاليْ
صَدَى الضَّحكاتِ والهُزْءَ المُغَاليْ
وعارًا يَقبِضُ القلبَ الحزيْنَا؟
ومنْ يَدْريْ؟

XIII

وَحشٌ أنَا إن خوَّلتنِيْ قُدْرَتي
أنْ أخنَقَ الحُزنَ الذيْ في مُهجتي
أنْ أطلِقَ الغضَبَ الأثيمَ إلى يدِي
كيْ تسحَقَ الطُّهْرَ المُجَسَّدَ فيكِ

من وَحْلِ دربٍ لاهبٍ كقروحيْ
حَمَلَتْ يديْ حَجَرًا بِقَسْوَةِ رُوحيْ
وَرَمَتْ بهِ وجْهَ النَّدى السُّبُّوحِ
كيْ تسحَقَ الطُّهْرَ المُجَسَّدَ فيكِ

كالوَحشِ كالمَسعورِ كنتُ ومَا ليْ
عقلٌ ليُرشِدَنيْ إلى أفعاليْ
بيدِي تمَزَّقَ خَافقيْ فيْ الحالِ
إنْ داهمَ الطُّهْرَ المُجَسَّدَ فيكِ

وَغَدَوتُ فيْ الدَّنَسِ الرَّدِيْ والأفظعِ
لكنَّ صُورَتَكِ اختفتْ فيْ أضْلُعِيْ
كالشَّمْسِ قد عُكِسَتْ على مستنقعِ
منْ جَوْهَرِ الطُّهْر المُجَسَّدِ فيكِ

XIV

يَقِفُ المَصِيرُ كمَا الجِدارُ مُباعدًا
بَيْنِيْ وبَينِك مثلَ أمواجِ المُحيْطْ
تَذريْ القواربَ في اتجاهاتِ الرِّيَاحْ
وتُبَاعِدُ الأقدَارَ فِيْ عتمِ القُنُوطْ
وأنا وأنتِ كأنَّنَا نتَخَبَّطُ
كُلًّا بضفَّتِهِ نُحاذِرُ منْ سُقُوطْ
يا نَجْمَتيْ! يا قَسوةَ النُّورِ الَّذيْ
بِوضُوحِهِ أحيَا ولوْ بَعُدَتْ شُطُوطْ

في البُعدِ أُرسِلُ نظرَتيْ لِتُقَبِّلا
آثَارَ أقدَامٍ على الأرض الشَّقيَّةْ
وتلِمُّ رُوحيْ من هواءٍ مشْبَعٍ
بالعِطرِ أنفاسًا معلَّقَةً زكيَّةْ

لكنَّ غاباتٍ تكاثَفَ ظِلُّهَا
طمَسَتْ مَعَالِمَ دَرْبِكِ.. اختفَتِ الطريْقْ
وأنَا أسيرُ بِلا دَلِيْلٍ، هدَّنِيْ
رُعْبٌ يُحاصِرُنِيْ بأفكاريْ غريْقْ
خلفيْ دخَانٌ خلفَهُ كُتَلُ الدُّخانْ
قدمَايَ ترتجِفانِ مِنْ ثقليْ، وفِيْ
قلبِيْ يَحُلُّ البَرْدُ مِنْ مهْوَىً سحيْقْ

XV

أرَى في الحُلمِ أحيانًا كثيرَةْ
ربيعَ صِباكِ – صُورتَكِ الأثيرَةْ–
كمَا رسخَت بأفكاري مُثيْرَةْ
كوعدٍ بالهوى رغَدًا وطِيْبَةْ

تَحُومُ تحُومُ من فوقِيْ، وفورًا
أرى شَبَحًا ضَبَابِيًّا جسورًا
وفيْ عينيهِ تلْمَعُ مستطيرَةْ
لظى نَاريْ القديمةِ والغريبَةْ

يَدُ الشَّبَحِ الرَّهيْبِ على فُؤاديْ
تحطُّ لزوجةً – أفعى بوادِ-
عليَّ فيمتلي قلبي بِبَرْدِ
ويَسكُنُهُ الأسى، يعلو وجيبَهْ

أُسمِّرُ ناظِريَّ عليهِ حيْنًا
أراهُ ينْحَنِيْ صَوْبِيْ مَكِينًا
بلا صوتٍ...
ويهْمِسُ: نَمْ! أنا موتُكْ..
أنا موْتُك!

XVI

دفن السَّيِّدة أ. هـ

ملعُونَةً تحتَ الغِطاءِ المعدنيْ
رَقدتْ يدٌ في داخلِ التَّابُوتِ
كانت بساعةِ غَفلَةٍ وتضاغُنٍ
قدْ فرَّقَتنا كالقَضا المبتُوتِ

شَاهدْتُ تابوتًا حَواهَا ضيِّقا
في شقِّ أرضٍ فاغرِ الفمِ مُعتِمٍ
ورخامةً ملساءَ حطَّت مطبقةْ
من فوقه، آمين! بئسَ المأتم

وأراكِ في ثوبِ الحِدادِ تُراقبينْ
عيناكِ نحوَ الأرضِ، رِجلُكِ ثابتَةْ،
دمعُ الفراقِ، وعقدةٌ في الحاجبينْ،
ومشاعرٌ في العمقِ ظلَّتْ صامِتَةْ

وأنا بجانِبِكِ انتصَبتُ كمَا الصَّنَمْ
ببرودةٍ، والقلبُ أنواءً كبتْ
قلقًا بصمتٍ، فيْ مُخيِّلتيْ حِمَمْ،
كسحابةٍ في الرِّيْحِ أفكاريْ عَوَتْ

"تلك اليدُ امتدَّتْ لتَقتُلَ حبَّنَا
واستوطَنتْ في الإثمِ فيْ الموتِ الزُّؤامْ
أتراها تبقى عائِقًا بعدَ الفَنَا؟
أمْ يهنأُ القلبان عَيْشًا في سلامْ"!

عيْناك مُغمضتَانِ وجهُكِ مُوصَدُ
والدَّمْعُ خفَّفَ من شحوبِك حِيْنًا
وأردتُ مَعرفةَ الحَقيْقةِ: هلْ يدٌ
تمتدُّ منْ قبرٍ لتعبَثَ فينا!

XVII

أَلَميْ كبيرٌ فاقَ كاملَ قُدْرَتِيْ
مع ذاك لمْ ألعنْكِ، يا حُبِّيْ الفتيّْ،
ولقدْ تحمَّلْتُ التعاليْ صامِتًا
مُتَجاوِزًا بُؤسَ الأسى يا نَجمَتِيْ

خَوفِيْ عَليْكِ فأنتِ لا تَدريْنَ أنَّ–
العِشقَ ليْس إلهَ خيرٍ بل مِحنْ
إن ضَامَهُ أحدُ الحبيْبَيْنِ يُجَنّْ
يُصليْ لَظَاهُ كليْهِمَا يا نَجمَتِيْ

خوفِيْ عليك، وأنتِ حُبِّيْ تَقتُليْنْ،
حُبًّا خجُولًا طاهِرًا حلوَ المعيْنْ،
أحيَا بهِ، هوَ غايَتِيْ.. لا تَعلمينْ؟
وبدونهِ أينَ الرَّجَا يا نَجمَتِيْ

هلْ تعلمينَ بأنَّ كنْزَ هناءِ
قدْ راكَمَتْهُ يدُ الهوى برجاءِ
دمَّرْتِهِ وكفرتِ بالآلاءِ
هيَ فُرصةٌ.. ضيَّعْتِهَا يا نَجمَتِيْ!

تدرين أنَّكِ فيْ القريبِ العاجلِ
وبضربَةٍ من ريشَةٍ لن تَعقُلي،
سيَسيلُ دَمْعُكِ حسرةً لا تَنجلي؟
أوَلَستِ منْ داسَ الهَنَا يا نَجمَتِيْ؟

XVIII

تَبْكِينَ ودَمعُكِ ينْهمِرُ
مِنْ حرْقَةِ قلْبٍ يَعتَصِرُ
بالكَادِ تَلوحُ تجاعيْدُ
في وجْهِكِ.. لكنْ ما الخَبَرُ؟

تَبْكِينَ! لماذا أبْعَدْتِ
حُبِّيْ، وهنائِيْ دمَّرْتِ؟
عبثًا بالدَّمْعِ تَنالينا
عَطفًا.. وسأبقى فِيْ صَمْتِي

بِجَمَالٍ أخَّاذٍ صافِ
عبَثًا تَرجيْنَ استِعْطافي
فكلانا ينظرُ والحبُّ
كالجثَّة ميتُ الأطرافِ

بحرارة أيَّامِ النَّدْبِ
سيمُرُّ العُمْرُ بِلا حبِّ
كضريحٍ يعكُسُ بعضَ سنا
كسرابٍ يومضُ في الدربِ

XIX

لستُ أشكُو مِنْكَ يَا حظِّيْ العَنِيدْ
أنتَ عِنديْ مثلَ خلٍّ لا يُفيْدْ
كَيْ أُعيْدَ الحَقلَ حيًّا منْ جديدْ
أقلَعُ الأزْهَارَ حرْثًا بالحَديدْ

هَاجَ مِحرَاثِيْ وغَالى فِيْ الصَّريْرْ
يُذْبِلُ الزَّهْرَ فيستَلْقِيْ نَثِيْرْ
بَيْنَمَا القَلْبُ بِلا صَوْتٍ حَسِيْرْ
غار فِيْ ثَلْمٍ مِنَ الأرضِ وطِيْدْ

خلفَ مِحْراثِيْ الهُوَيْنى تَطرُقِيْنْ
فِيْ جُرُوحِ النَّفسِ حُبًّا تَنثُريْنْ
بذْرَةَ الآمَالِ، أنفَاسَ الحَنِينْ
جَذوةّ الرُّوح ومَعناها الجَديدْ

XX

الشَّبح

خلْفَ المدَى اللّيليِّ فوقّ مدينّتيْ
ثَقُلَتْ ثُلوجٌ في هُطُولٍ صامِتِ
نحَتَتْ لهَا شكلًا كئِيبًا حالِكًا
فاسْتَسْلَمَتْ لأَسىً بِوجْهٍ ميِّتِ

حَلقَاتُ نورٍ منْ مَصَابيْحِ الطُّرُقْ
عَكَسَتْ على الأرضِ التهَابًا مُحتَرِقْ
وكأنَّها ضوءٌ بظُلمَة مَدفنٍ
يخفى ويَظْهرُ كُلَّمَا اهتَزَّ الأُفُقْ

النَّاسُ يزدَحِمُونَ فوقَ الأرصِفَةْ
بمَعاطِفٍ وأنَاقَةٍ مُتكلِّفةْ
بالقُربِ مِنْ جَمْعٍ بأسمَالٍ بَلَتْ
والكُلُّ يمشِيْ كالعَناكبِ زاحِفةْ

وَسْطَ الحُشُودِ بوِحدتيْ أسعى إلى
هَرَبٍ مِنَ الأفكارِ في رأسٍ علىْ
لكنَّها بعنادِها دخلت دميْ
واستوطنتْ في القَلبِ لا حولٌ ولا

وأنَا تمَامًا كالغريْقِ بلا هواءْ
أرجُو النَّجاةَ بقشَّةٍ تَمحُو البلاءْ
نَهِمًا إلى رُوحٍ تداوِي وحْشَتِيْ
أرنُو إلى كلِّ الوُجُوهِ بِلا رَجاءْ

فِيْ لحظَةٍ جَمُدَ الفُؤادُ تسمَّرا
لمْ يَقوَ إلَّا أنْ يئِنَّ مُخدَّرا
هَرَبًا أردتُ، وما استَطَعتُ تَحرُّكًا
وكأنَّ ساطورًا هوى رأسِيْ فَرَا

ذا ليسَ ساطورٌ ولكنْ ساحِرةْ
وجهٌ أليْفٌ ذو ملامحَ بَاهِرةْ
أومَتْ إليَّ بهزَّةٍ مِنْ رأسِهَا
نَظَرتْ.. وتابَعَتِ المَسيرَ مُغادِرةْ

رَمَشتْ بعيْنيْها وأرسلتِ السِّهامْ
عينَانِ سَودَاوَانِ أمضى مِنْ حُسام
هِيَ نظرةٌ.. هيَ وَمضَةٌ ثمَّ اختَفَتْ
ضَاعَ البَريْقُ تبدُّدًا وسطَ الظَّلامْ

وَوَقَفتُ وَحدِيْ جامِدًا مثلَ العَمودْ
والثَّلجُ يَغمُرُنِي وترمُقُنِيْ الحُشودْ
خَالٍ مِنَ الإحساسِ، لا بَردٌ ولا
ألَمٌ، فَعَقليْ لمْ يَعُدْ فِي ذَا الوُجُودْ

"هيَ!»، لفظَةٌ نَفَرَتْ كما النَّجوَى «هيَ"!
جَبَّارةٌ ومُخيْفَةٌ تمحو الضِّيا
كرحىً بثقلٍ هائلٍ حطَّتْ على
صدريْ فأُبكِمَ لم يقلْ إلّا: «هيَ"!

هيَ حُلمِيَ الزاهي وزهرةُ جنّتيْ
كانت مِثالًا للبَهاءِ المُلفِتِ
وشَذَا عَبائِرِهَا يفُوحُ ويختَليْ
بالقَلبِ يُسْكِرُهُ فتَحلُو سَكرتِي

مَا خِلتُهَا إلَّا الفريدَةَ والّتي
جَادَت بها الزَّفَراتُ مِنْ قلبِيْ الفتِي
ورأيتُ فِيهَا كلَّ آمَالِ الحيَاةْ
كلَّ الجَمالِ بِها.. وأحَلى غايةِ

كَانتْ بِهَمْسَتِهَا إذا شاءتْ أصِيْرْ
بَطَلًا عَظيْمَ الشَّأنِ في أبَدِ المَصِيْرْ
فتُنِيْرُ عيْشيْ شُعلَةٌ لا تَنطفيْ
ووُقُودُها أملٌ منَ الخيْرِ الوَفيْرْ

يدُها الّتِيْ حَمَلَتْ بِها مفاتيحَ الجِنانْ
ورَمَتها في مُستَنقعِ الوَحلِ المُهَانْ
فاستخسَرتْ بي لفظةً سحرِيَّةً
لا، لمْ تقُلهَا كيْ تقِي قَرْحَ الجَنَانْ

رَمَقتنِيْ عنْ بُعدٍ بِطرْفٍ جاحِدِ
فَرَمَتنيْ في بِئرٍ بقعرٍ باردِ
والحقُّ أنَّ العَارَ، والوَحلَ الَّذيْ
في القعرِ غطَّاها ولم يمْسَسْ يَديْ

خبِّرْنِيْ يا شَبَحيْ عنِ القَدَرِ الشَّقيْ
أَرَمتْكَ منْ أعْلَى بِقَاعٍ غارقِ
في الوحلِ؟ كيف؟ لِمَ؟ هلْ جرُؤَتْ على
قتلِ الرَّبيعِ ودفنِ رُوحِ العاشِقِ؟

أمْ أنَّ دَمعَ اليُتمِ منْ جُوعٍ وقَرّْ،
أمْ شعلةُ الشَّوقِ المُفَتِّتِ للحجَرْ
تطويْ الإرادَةَ؟ أمْ عواصِفُ هشَّمَتْ
أمَلًا، فدربُكَ قدْ غَدا ذُلَّ القَدَرْ؟
أدعُوكَ فاهدأْ، والتمِسْ طوقَ النَّجاةْ
بالحُبِّ يُمكِنُنِيْ اجتِراحُ المُعجِزاتْ
وبِلحظةٍ أجِدُ المَفاتِيحَ، انتَظِرْ،
فسأفتحُ البابَ المُؤَدِّيْ للحَياةْ

لكنَّها شبحٌ.. وغادرَ فيْ الظَّلامْ
لم تنتظرْ، لم تستَمِعْ، ضاعَ الكلامْ
عيناي تَحترِقانِ بحثًا والوعيْ،
والرُّوحُ كيف بدونِها تجِدُ السَّلامْ؟

6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1892

خاتمة

تَنَاثريْ في المدى،
ذوابلَ الأوراقْ
تَناثَريْ زفرةً في مُبْهَمِ الأُفُقِ
كالجُرحِ مفتُوحًا،
كالحُزنِ من أعماقْ،
كالحُبِّ مخنُوقًا في قلبيَ الأرِقِ

لا تَسْكُنِيْ أبدًا
في ذِكرياتِ البَردْ
تناثريْ في الغابِ، لُعبَةَ الرِّيحِ،
من ذا الذي يَدريْ
كمَّ المشاعِر عندْ
أشعارِ بؤسٍ تُحاكيْ كنزيَ الرُّوحيْ

كنزُ الشَّبابِ الَّذيْ
بدَّدْتُهُ تِيهًا
فوقَ الدُّرُوبِ بلا وعيٍ ولا أثرِ
مشرَّدًا أحملُ الأحزانَ أعتُلُهَا
أسعى إلى قَدَريْ..
ومُصِيْبَتِيْ قَدَريْ

القبضة الثانية

(1895)

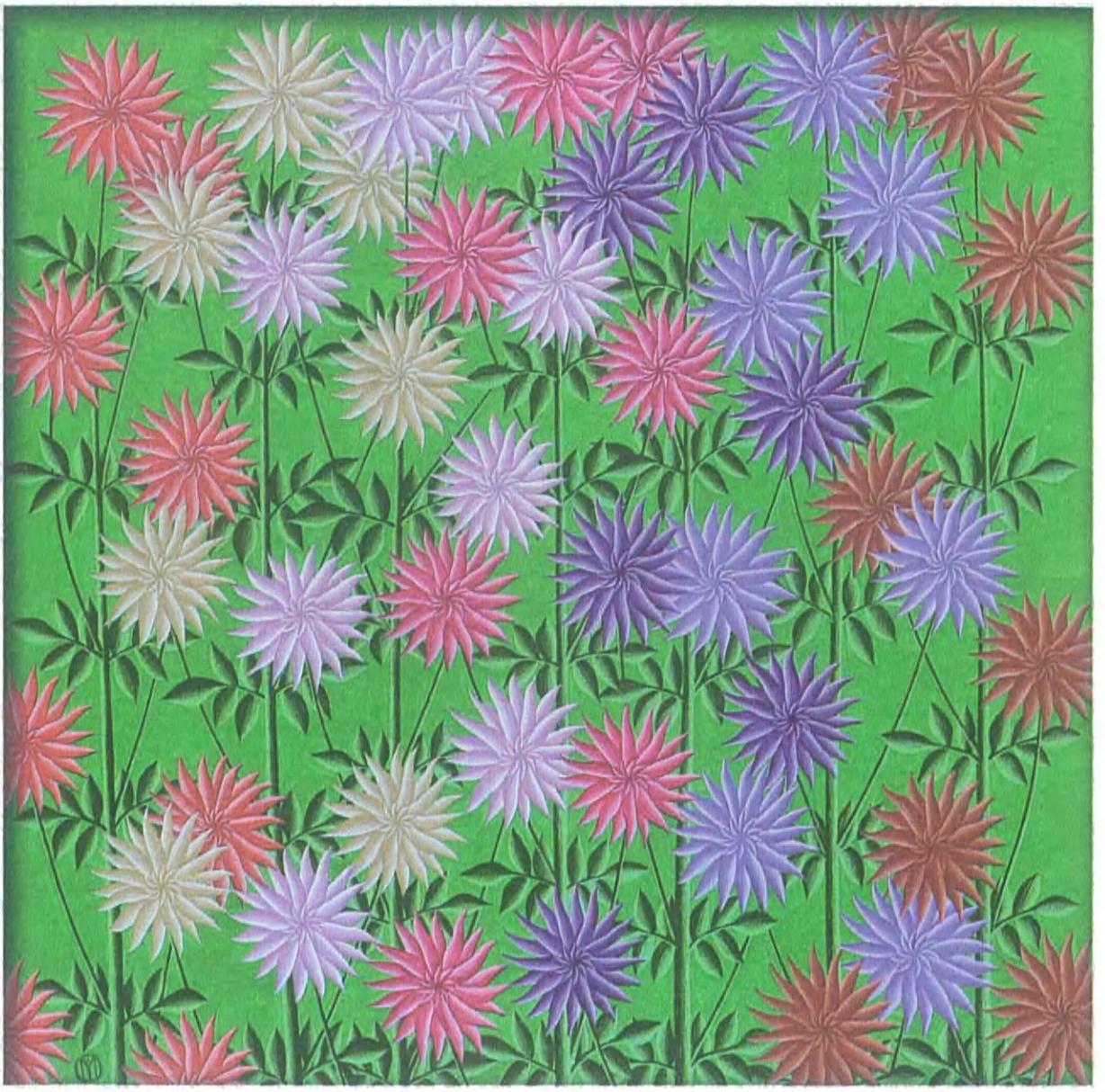

I

أنَا حيثُ نهرُ السَّان* يمضي أخضَرَ
في بيرمشلَ**، فوق جسرٍ مِنْ حَجَرْ
وقَفَتْ معِيْ أفكاريَ الحُبْلى بكِ
يا روحَ رُوحي.. يا عذاباتِ الفِكَرْ
كيفَ السَّعَادةُ مِنْ بَعيْدٍ لوَّحَتْ
لحياتِنا شبَحًا، وغابتْ لا أثَرْ
أتبسَّمتْ ثمَّ اختفتْ؟ تركتْ أسىً
في النَّفْسِ لا يُمحَى وإنْ زَمَنٌ عَبَرْ

خَطرتْ بذهنِيْ قِصَّةٌ خُبِّرْتُها
السَّانُ مسرحُها بِفصلِ شتاءِ
نهرٌ تجَمَّدَ بات سطحُهُ معبَرا
للنَّاسِ والعرباتِ دونَ عَناءِ
آثارُ زلَّاجَاتِها المتشابكةْ
رسمت سِمات تجوُّلٍ وشقاءِ
الشَّمْسُ فيْ كَبِدِ السَّما ظُهرَ الأحَدْ
والثَّلج يَبْرُقُ ناصعًا بنقاءِ
والناس قد أنهوا الصلاة ليحفلوا
بالصَّحْوِ فانتشروا إلى الأرجاءِ

منْ وسطِ حَقلِ الثلج خلف السانِ رنَّْ
صوتٌ فَظيْعٌ خَارِقَ الأجواءِ
للخَيْلِ قدْ نَهَبَتْ جليدًا عائمًا
من خلفِهَا «تشفِرْكَا»*** بدونِ رَجاءِ

---

* السان: نهر يمرُّ في أراضي أوكرانيا وبولندا بطول *444* كيلومترًا، ينبع من جبال الكَرَبات على الحدود الأوكرانية - البولندية، على علو يصل إلى *900* مترٍ عن سطح البحر، في مقاطعة لفيف.

** بيرميشل (بالبولندية: بريجميسل): مدينة بولندية تقع على الحدود الجنوبية السرْقية للبلاد مع أوكرانيا، تبعد نحو *12* كيلومترًا عن حدود مقاطعة لفيف.

*** تشفيركا: عربة كبيرة سريعة تجرُّها أربعة أحصنة درج استخدامها في البلاد السلافية، تزوّد بزلاّجات عوض الدواليب، في فصل الثلوج. والاسم "تشفيركا"، يعني رُبَاعِية.

دارتْ كزوبَعَةٍ وطَارتْ تلتويْ
نَثّرَتْ نزيفَ الثَّلْجِ وسطَ هواءِ
منها، كذلك، طارَ حُوذِيٌّ شَقِيْ
في لمْحَةٍ، كرصَاصةٍ خَرقاءِ

وقَفَ الجَميعُ مراقِبينَ شهُودا
ضَرَبوا الأكُفَّ تحسُّرًا وتهامَسُوا:
«هذا جنونٌ، كيفَ يأتِيْ عاقِلٌ
فِعلًا كهذَا منكرًا!»، وتوجَّسُوا:
«مِنْ أيْنَ جاءَ؟ وكيفَ يمضيْ هكذا؟
أإليْنَا يَسعى؟ منْ يكُونُ البائسُ؟»
وأمامهمْ طارتْ خيولٌ أربَعةْ
بالسَّوطِ يلسعُهَا رجَيْلٌ يائسُ
حطَّتْ على سطحِ الجليْدِ كزوْبَعةْ،
في إثرها، عجلاتُها والسَّائسُ

في وَسْطِ حَوضِ النَّهرِ كانَ المُنتهى
وبلحظةٍ كُسِر الجليدُ، تحطَّمَا
وانْهَارَ، ضمَّ «التشفيركا» والأحصِنةْ
والسَّائسَ المِسكيْنَ في نُتَفِ الدِّمَا
وكأنَّ ذلك كُلّه حلْمٌ مَضى:
شَبَحٌ تراءى لحظةً وتهشَّمَا.
السَّانُ وحدهُ مثل شيطانٍ بدا -
ازدَرَدَ الحُطامَ ومطَّ فاهُ ودَمْدَمَا
ثمَّ استوى، لعقَ الشِّفاهَ بِموجَةٍ
خضراءَ هادئةٍ.. وقعرهُ أظلمَا
وقفَ الجميعُ يراقبونَ ولمْ يعُوا
ما شاهَدوهُ.. أذاكَ ماءٌ ما هَمَا!

وَتَفرَّقوا وتعدَّدَتْ أخبارُهُمْ
لكنَّهُمْ لم يَعرفوا من كانَا
مِنْ أينَ جاءَ أبو الخيولِ الأربَعةْ؟
لمْ يأتِ من يعطيهُمُ عِنوانًا!
حتَّى إذا جاءَ الرَّبيعُ بِدفئِهِ
والسَّانُ ذابَ جليْدُهُ جذلانًا
لمْ يلفُظِ النَّهرُ الحُطامَ ولم يجدْ
أحَدٌ بقاياهُمْ، ولا برهانًا..
لوْ أنَّ حادثَةً مُمَاثِلَةً جَرَتْ
وشهِدتُهَا وحْدِيْ لحِرتُ زمانًا
ولَخِلْتُ أنِّيْ واهِمٌ في ما أرى
أو أنَّهُ حُلْمٌ وليسَ عيانًا
لكنَّ جمْعًا رأى ما قدْ جرى
وغدا حديثَهُمُ غدًا والآنَ

وكأنَّها أمثولةٌ حَدَثَتْ معي
ومصيرُ ذاكَ المُختفيْ كمصيْريْ
فالقهرُ يَسكُنُنِيْ ويُذكِيْ لوعتيْ
والقلبُ تخنُقُهُ دموعُ سعِيْريْ
فإذا أتَتْ ذكرى اللقاء الأوَّلِ
للبالِ، تَهجُرُ لوعتي بزفيري
وتجيئُ آمَالٌ أظُنُّهَا حَقَّةٌ
بيضَاءُ ناصِعَةٌ بلا تكدِيرِ
فأطوفُ في حيِّيْ.. ولكنْ فجأةً
تَهوِيْ المُنَى في قسوَةِ الدَّيْجُورِ
وكأنَّهَا حُلْمٌ.. وشيءٌ لمْ يَكُنْ:
أسطورةُ السّانِ الَّتِيْ كمَصيْري

II

فِيْ الحَقلِ وحديْ مُوجَعٌ
والشَّمسُ فِيْ حُضنِ السَّمَا تتربَّعُ
لا ناسَ حوليْ، لا جُسومٌ ولا ظِلالْ
لا همْسُ لا ما يُسمَعُ

فِيْ الحَقلِ وحديْ مُوجَعٌ
والعُشبُ خُضرتُهُ تمُوجُ وتلمعُ
كالبَحرِ تعبَثُ فِيْ حنَاياهُ الرِّياحْ
هوَ للجنادِبِ مَرتَعُ

نهرٌ طويلٌ فِيْ الأفُقْ
رسمَ السُّفوحَ بزُرقَةٍ ثمَّ انثنى
فتسلَّقتْ مجراهُ أفكاريْ إلى
مرجِ انبساطِ الزَّيزفونِ، إلى السَّنَا،
لتعُومَ رُوحيْ فِي العَبَقْ

لكنَّ صمتًا ردَّنِيْ
فجَمَدْتُ أُنصتُ كيفَ يُحتجَزُ الهَوَا
فِي الصَّدرِ، كيْف تنهُّدي القاسي انزوى
ألذاكَ نايٌ هزَّنِيْ؟

يَتَدَفَّقُ اللَّحنُ الخجُولْ
والقَلبُ يُهصَرُ فِيْ نواحٍ صامِتِ
تقِفِينَ وَحدَكِ فِيْ المدَى يا نجمتِيْ
وتُردِّدينَ اللَّحنَ عدوًا فِي الحقُولْ
ليصيرَ صوتُكِ صرخَتِيْ

III

جُمَّيْزَتِيْ الخضرا.. جُمَّيْزَتِيْ الخَضرَا
أبهَى من الصَّفصافِ، فقْتِهِ سِحْرَا
أحلى النِّسَا عنْدِي بين الورى طُرًّا
ووحدكِ الحُلوةْ

يا وردةً حَمرَا.. يا وردةً حَمرَا
تزهُو على الألوانِ، فُقتِها سِحرَا
وَجْهٌ حُبِيْتِ بهِ، لمْ تُعطَهُ أخرى
كالشَّهدِ يا حُلوَةْ

النَّجْمُ نوَّارٌ.. يستَنظِرُ الفَجرا
لكنَّه خَجِلٌ، إذ فُقتِهِ سِحرَا
عينَاك سوداوانِ لمعةً حُرَّةْ
عيناكِ يا حُلوةَ

في قرعِ أجرَاسٍ أسمَاعُنَا أسرى
لكنَّ سنبلةً هَمْسًا شدتْ سحرًا
ذا صوتُكِ الغالي لِلقَلبِ كالمَسرَى
كالعزفِ يا حُلوَةْ

البَحرُ جبَّارٌ.. يوزِّعُ الذُّعرَا
بلا حدودٍ كأحزَاني امتلتْ قهْرَا
في حسْرَتِيْ أذويْ تغتَالُنِيْ الذِكرى
ذِكراكِ يا حُلوةْ

IV

يا ربَّةَ القدِّ اللَّطيْفِ الآسِرِ،
شرٌ وسُخريَةٌ بقلبِكِ ذَا الطَّريْ!
شَفَتَاكِ سِحرٌ يحتَويْ رَجْعَ الصَّلا،
وكلَامُكِ الشَفراتُ نحوَ المنْحَرِ!

عينَاكِ تأتَلِقَانِ لطفًا زَائدًا،
لِمَ تُشعِلانِ حريقَ قَلبٍ صابِرِ؟
عينانِ نعساوانِ ليلٌ غائِمٌ
مَحَتَا شُعَاعَ الشَّمسِ خلفَ ستائرِ
حتَّى التبسُّم باتَ عِنديْ مُنهِكًا
والقلبُ عاصِفَة بِنبضٍ عاثِرِ

مَا الفَجرُ، ما مَعنَى الوضوحِ برأيِكِ؟
ما دُمتِ أنتِ سعادتِيْ وتحسُّرِيْ
والحُزنُ أنتِ وكلُّ حبِّيْ المُشتَهَى
وهلاكُ رُوحيْ في جحِيمٍ جائرِ

٧

يَا تُوتَتِيْ البَرِّيَّةَ الحمراءْ
في المَرجِ تختَبِينْ.. في المَرجِ تختَبِينْ
هلْ تكرَهِينَ الشّمسَ نُورَ بهاءْ
ومِنهُ تهرُبِينْ.. ومِنهُ تهرُبِينْ
أمْ تَحضُنيْنَ الزَّهرَ فِيْ الأنوَاءْ
وعَصفَها تخشِيْنْ.. وعَصفَها تخشِيْنْ
تَتَجَنَّبِيْنَ البَرقَ تحتَ سَماءْ
فَلا تُوَاجِهِيْنْ.. فَلا تُوَاجِهِيْنْ

لا، لسْتُ أخشَى البَرقَ تحتَ سَما
والرِّيْحُ تُغرِينِيْ.. والرِّيْحُ تُغرِينِيْ
والزَّهرُ لا أحمِيهِ.. لستُ حِمَى
تكفِي أفانِينِيْ.. تكفِي أفانِينِيْ
أهوى السَّنَا، يستوقِدُ الحُلُمَا
أهواهُ يَغزُونِيْ.. أهواهُ يَغزُونِيْ
حبَّاتِيَ الحَمراءُ تُثقِلُنِيْ
للأرضِ تَحنِينِيْ.. للأرضِ تَحنِينِيْ
سَعيًا إلى العَلياءِ تَحرمُنِيْ
بالزَّهرِ تَشْذُونِيْ.. بالزَّهرِ تَشْذُونِيْ
والسِّندِيانُ بِظلِّهِ حَكَمَا
فَوقِيْ يُغطِّيْنِيْ.. فَوقِيْ يُغطِّيْنِيْ
فِيْ فَيْئِهِ حظِّيْ وإنْ عَظُمَا
فِيْ الظِّلِّ والطِّيْنِ.. فِيْ الظِّلِّ والطِّيْنِ

VI

لَهفيْ عَليْكِ غُضُونٌ فوقَ أفنَانِكْ
يا سِندِيَانةُ ما سرُّ التجَاعيدِ
كأنَّها المَرجُ كانتْ خُضرُ أغصانِكْ
والدَّمعُ منِّيْ كسلسالٍ على جِيدِ
سودَ اللَّيَاليْ قضيْتُهَا بأحضانِكْ
لتُبرئيْ القلبَ من جَرحٍ وتسهيدِ

جذرٌ روتهُ دموعُ العينِ والفِكَرُ
فيْ اللَّيْلِ بعدَ أذىً منْ عاشقٍ فظٍّ
عيناهُ سودَاوانِ، فيْهِمَا كِبَرُ،
قدْ آذتَا قلبِيْ من جَارحِ اللَّحظِ
كلامُهُ كصفيْرِ الرِّيْحِ يفتَخِرُ
يخلِّفُ الألَمَ المعكُوسَ في اللَّفظِ

القلبُ يذويْ، يُذِيْبُ الحُسنَ في جَسَدِيْ
والرُّوحُ تذبُلُ لا تَلويْ على أحَدِ
والحيلُ.. لا حيْلَ عنديْ، صاحِبيْ كَمَدي
غابَ الرَّبيْعُ ولنْ يأتِيْ.. ولمْ يَعِدِ

أوراقُكِ الصَّفرَا.. خريفُ أحلامِكْ
في الحقلِ مثلي، أراهُ وِردُها وِردي
فُتَاتُ مَجديْ وحيْليْ مثلُ أيامِكْ
يَهويْ نِثَارًا بمِنْشَارٍ من الحِقدِ
حِقدُ الحديدِ صَريرٌ شقَّ أثلامِكْ
ومزَّقَ الرُّوحَ بالأسنانِ والحدِّ
لهفيْ عليْكِ وعنديْ جلُّ آلامِكْ
بئسَ المِهادُ جحيم كالَّذيْ عِنديْ

VII

أحتَارُ في حُزنِيْ وفي آلاميْ
ظُلَمٌ بلا قعرٍ.. بدُونِ حُدودِ
عُصفُورتِيْ أفلتُّها، وغراميْ
طارتْ بهِ، أيُعيدُهَا تَهوِيدي!

كانتْ معيْ وبخِلتُ في الإكرامِ
والرِّفقِ، فاغتمَّتْ بِلا تغريدِ
واليومَ إثرَ رحيلِهَا الدَّهَّامِ
في ناظريْ قلقٌ.. أذىً بوريدِي

كانَتْ معي وبقِيتُ في أوهامي
مُتردِّدًا في الحسمِ رهنَ وعودِ
مَا خِلتُ أنَّ رفيقةَ الأحلامِ
ستفرُّ مُسرعةً وتكسرُ عوديْ

طارتْ بدونِ تلفُّتٍ ومَلامِ
ولعودةٍ لم تسعَ بالتأكيدِ
رحلتْ فغابتْ فرحةُ الأيَّامِ
ذهبتْ بلحنِ الرُّوحِ سرِّ وجودي

ماتَ الحُبورُ وعُلَّ بالأسقامِ
صَدري، وآمالي انطفتْ بِبُرُودِ
مثلَ الربيعِ يغيبُ بعدّ دوامِ
فيموتُ سحرُ الزَّهرِ عطرُ ورودِ

VIII

أنَا لا أحبُّكِ يا عبيرَ الزَّنبَقِ
لا أعشقُ اللَّمَعَانَ في عَيْنيكِ
لا رنَّةَ الصوتِ الرخيمِ الواثِقِ
إذْ يُطربُ القلبَ المَقُودَ إليْكِ

لا وقعَ خُطواتٍ صداهَا خافِقِيْ
ترويْ كمالَ الخَلقِ فيْ ساقيْكِ
لا أعشَقُ الشَّفتينِ وردَ الرَّونقِ
ما لمْ يصِلنيْ الودُّ منْ شفتيْكِ

لا وجهَكِ القُدسيَّ نورَ المَشرِقِ
في صدقِهِ، إذ لا قناعَ لديكِ
لا قدَّكِ السرويَّ نحتَ الخالِقِ
لا الآهَ إن سبحَتْ على نهديْكِ
أنتِ التناغُمُ في جمالٍ رائِقِ
والسرُّ أغنيةٌ بنسجِ يَديْكِ

أنَا لا أحبُّكِ إنَّمَا أهوى حُلُمْ
أهوى صدى الهذيَانِ في قلبِيْ
وأذُوبُ فيكِ بمَا منِحتُهُ مِنْ نِعَمْ
مُنذُ الطُّفُولَةِ في الوَعِيْ الخصْبِ

أحيَا الجَمالَ وفَيضُ رُوحِيْ إن عَظُمْ
أذرُوهُ حَولِيْ في المدى الرَّحبِ
فالحُلمُ قُوْتِيْ، منزلي.. لحنٌ هَزَمْ
مذْ كُنْتُ طيَّ غيَابَةِ الجُبِّ

فتشبَّثَتْ روحِيْ بِبَرقٍ في الظُّلَمْ
هامَتْ بهِ.. بسنَائِهِ العَذبِ
غَمَرَتْهُ وانسلَّتْ إليكِ.. إلى القُمَمْ
حيثُ الجَمالُ غِنَىً.. بِلَا عيْبِ

ها أنتِ.. أنتِ ظهرتِ في الحينِ
ها أنتِ! بالخَجَلِ اكتسى ذُعري
من ناظريْكِ البَرقُ يُعمِيني
والخَوفُ في عبّقٍ الشَّذا المُغريْ

مِنْ وَجهِكِ القُدسيِّ تأتِيني
لسَعَاتُ موتٍ غامضِ السِّرِّ
والذّعرُ يغزُوْ القَلبَ باللِّيْنِ
ثَمِلًا بسحرِك.. عابدَ السَّحرِ

أأفرُّ مِنك ومنكِ يُبقِيني
عشقٌ.. وأين ألوذُ، لا أدري!
أنا أكسِيونُ*.. اللَّعنُ تكويني،
واللَّعنُ يصحبُنِيْ إلى قبري

والعامُ تِلوَ العامِ يَكويني
والرُّوحُ تُحرقُ في لظى الأسْرِ
عبَثًا أفتِّشُ عمَّ يَشفيني
باللَّعنِ مسجونًا وبالقَهرِ

لا، لا أحبُّكِ إنَّمَا أهوى حُلُمْ
يجتَاحُنِيْ والنَّفسُ فيْ خُسْرِ
في البعدِ يسهُلُ انتحاري في الظُلَمْ
أمَّا أمامَك فالجُنُونُ مقرِّيْ

* . أكسيون: ملك لابثوس – أقدم قبائل مملكة سيثاليا. ينحدر نسله من آريس إله الحرب. كان متزوّجًا من ديا ابنة ديونيسيس. وعد حماه بتقديم هديّة نفيسة كمهر لعروسه إلّا أنه لم يف بوعده. غضب حموه وسرق بعضًا من خيل أكسيون انتقامًا. أخفى أكسيون رغبته بالانتقام، ودعا حماه إلى وليمة، وعندما وصل دفعه إلى سرير فحم مشتعل. أصاب أكسيون الجنون جرّاء فعلته وعاش منبوذًا.

IX

لماذا، دائمًا، لا تضْحَكِينَ
أأمواجُ الفتُور غزتْ فؤادًا،
فأمسى باردًا فظًا حزينًا،
ولا يَلِدُ الحبورَ ولا الودادَ؟

لماذا، دائمًا، لا تضْحَكِينَ
أإثمٌ ضامَ نفسَكِ مِنْ خطيئةْ
وعشَّشَ في ثنايا الرُّوحِ حينا
ليَخنُقَ فرحة الضَّحِكِ البريئةْ؟

أَمَاراتُ الأسى المخفيِّ ترسُو
على أحلى جبينٍ، كالخريفِ،
تظَلِّلُ بسمَةً، والثَّغرُ شمسُ
تُبَدِّدُ ظُلْمَةً رغمَ الكُسُوفِ

X

في القاطرة

شَرِيْدُ الذِّهنِ منذهِلُ
تفرُّ الأرضُ منْ طرفيْ
ويعدُو الغابُ والحقلُ
وأعمدةٌ إلى الخلفِ

كثوبٍ خيطَ منْ رُقعٍ
يُجرُّ بقدرةِ القادرْ
فتَركُضُ فيهِ أشجارٌ
تُحيطُ بروضِها أنهُرْ

نجُومُ اللَّيْلِ ثابتَةٌ
تُطلُّ عليَّ منْ فوقيْ
تبثُّ الأمنَ، هادئةٌ،
دليلَ تماسُكِ الحقِّ

نُجُومُ اللَّيلِ تنفردُ
بنُورٍ خارقِ الظُّلَمِ:
سوانَا لم يكنْ أحدُ
يُبرهنُ غايةَ النُظُمِ!

XI

هيَّا اسخَريْ منِّيْ يا نجمةَ الخُلدِ
وهلْ أنَا إلَّا فوقَ الثرى دُودةْ!
صدري عليلٌ مُرتخٍ بلا جلدِ
لا حظَّ ليْ في النَّجاةِ.. الرُّوحُ مفقُودَةْ

أخافُ منْ فكرةٍ في البال أو لحْنِ
مُخالفٌ نفسيْ، محاربٌ رُشديْ
صفرُ الإرادةِ، ذو وهنٍ أخو جُبنِ
هيَّا اسخَريْ منِّيْ يا نجمةَ الخُلدِ

أبغيْ الفرارَ إلى خلفِ البحارِ، أنا
أحارِبُ النَّفسَ لا أقوى على بُعدِ
والحُزنُ مغروزٌ في الصَّدرِ مثل قنَا
رهيْنَةٌ أبدًا.. والنَّفسُ كالغِمدِ

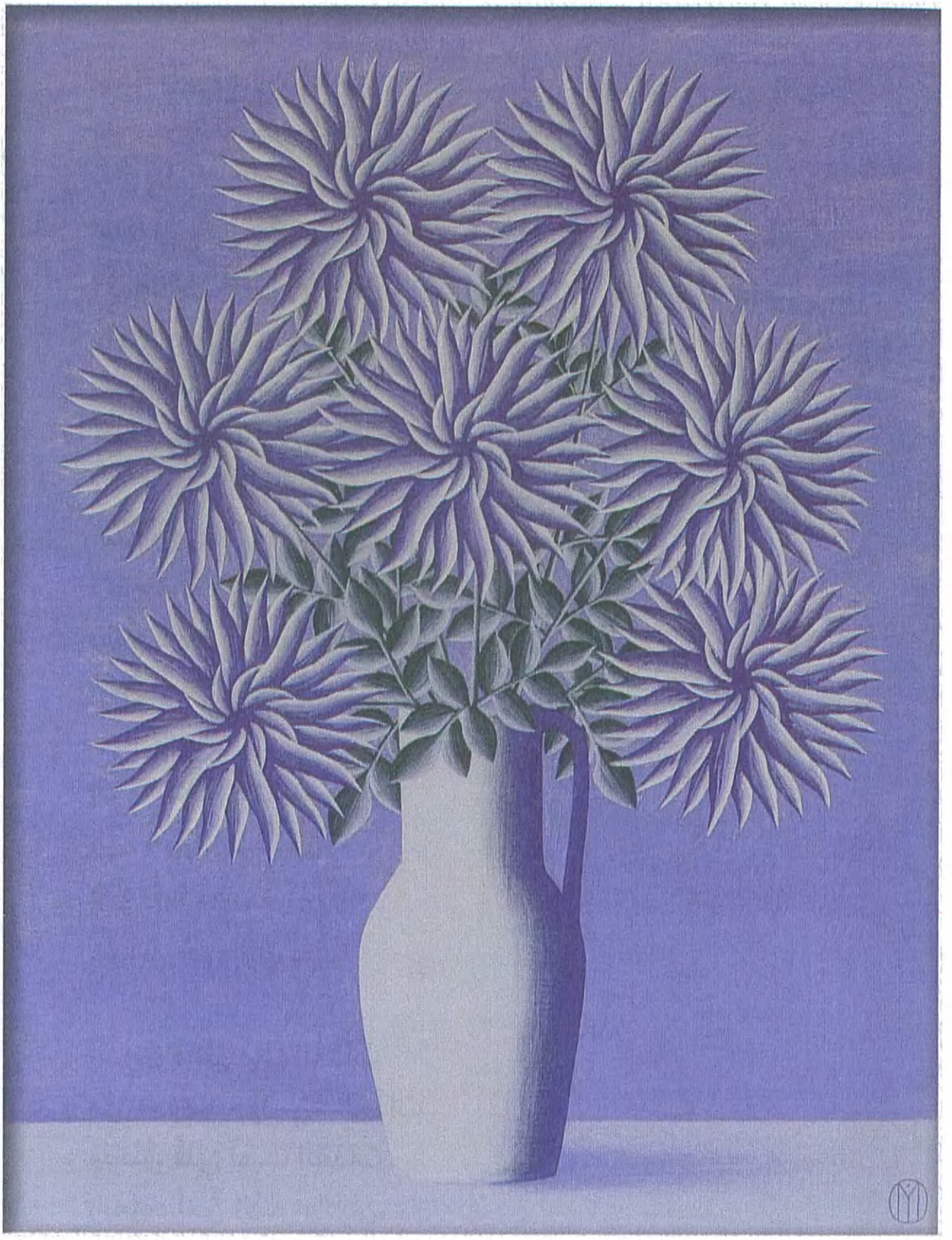

XII

لمَاذا تَزُورِينَني فِيْ المَنامْ؟
ومِنْ خَلفِ رِمشٍ تَطيرُ السِّهَامْ
بِعينينِ كالبَدرِ حالَ التَّمامْ
صَفاءً وحُزنًا بِدونِ غَمامْ،
كنبعٍ مِنَ المَاءِ حُلوِ المَعيْنْ

لماذا تَصُومينَ عَنْ كَلِمَاتْ؟
وفي مُهجتي تَمتَليْ الرَّغَبَاتْ،
بِشَهدٍ يَسيلُ مِنَ القُبُلاتْ،
وليستْ تَدومُ سِوى لَحَظَاتْ،
كَطَعْمِ اللَّهِيبِ عَلى الشَّفَتَيْنْ.

لماذا تَزُورينَنِي فِيْ الحُلُمْ؟
وخارجهُ تُحدِثِينَ الألَمْ
بقلبيْ فَيَعصُرُ دَمعًا ودَمْ
يُرَافقُ لَحنَ الشَّقاءِ الحَزينْ.

إذا مَا التقينَا فلا تَنظُرينْ
إليَّ.. أُحَيِّيْكِ لا تَأبَهيْنْ
بِهزَّةِ رأسِكِ هَلْ تَبْخَلِيْنْ؟
وتَدرِينَ حُبِّي إليْكِ يَقيْنْ!

أَتَدْرِينَ مَعنَى لَياليْ العَذَابْ
مِنَ الحَولِ للحَوْلِ قَيْدَ العَذَابْ
ويَخنُقُ قَلبِيْ لَهيبُ العَذابْ
ويغزوه لَحنُ الأسَى والأنِيْنْ.

تَعَاليْ إليَّ وَلَوْ فِيْ المَنَامْ
حَبِيبَتِي أنتِ امنحِيْنِي الأمَانْ
فلستُ لأحيَا العذابَ الزُّؤَامْ

سأتركُ قَلبِي مريضَ الهُيَامْ
لِيذويْ كما حَبَّة مِنْ جُمَانْ
عَلاهَا غُبَارُ الطَّرِيْقِ المُهِيْنْ

تَعَاليْ إليَّ وَلَوْ فِي الحُلُمْ
لأَحيَا بِحُبِّكِ، أَنسَى الأَلَمْ
لِيَمْلَأنِي أملٌ مُضْطَرِمْ
أُصَلِّيْ لِمُعجِزةٍ فَلْتَدُمْ
عَليَّ السَّعادةُ نَحوَ الأَتَمّْ
وأسعَدُ بالإثمِ سَعدًا مُبيْنْ

XIII

تَهُبُّ الرِّيْحُ فوقَ الدَّربِ –
حيثُ تَسِيرُ مُلهِمَتِيْ
فَتَسرِقُ فَرحتِيْ مِنْ قلبِيْ –
لمْ تَعبَأْ بِمَظْلَمَتِيْ

وَمُلْهِمَتِيْ تجِدُّ بِسَيْرِهَا –
والنَّاسُ لَاهُونَا
إلى العُشَّاقِ قَتْلى الخَمرِ –
إثرهَا طِرتُ مجنُونًا

ركضتُ ركضتُ في صمتٍ
ودمعِيْ سالَ أنهارًا
يبلِّلُ دَربَ مُلهِمَتِيْ
ويَرويْ فيهِ أحجَارًا

غرِيقٌ لمْ تَعُدْ تُجدِيْ
لإحيائِيْ سِوى نظْرَةْ
فَهَلْ سَتَجُودُ مُلهِمَتِيْ؟
خَلاصيْ حَسْرةٌ مُرَّةْ

إلى غَابٍ مِنَ المُرجانْ
بعُمقِ البَحرِ أنحدِرُ
وعنها في حديثِ جُمَانْ
أهازيجٌ بِهَا عِبَرُ

بدربٍ كالمَتاهاتِ
تَدورُ وقلبِيْ يَنفطِرُ
ومِن قاعِ الجوى تأتِيْ
اضطراباتٌ بِهَا فِكَرُ

حيَاتِيْ كُلُّهَا خَرِبَتْ
ورُوحِيْ مَرجَةٌ جَدْبَا
أمُلهِمَتِيْ الَّتِيْ راحَتْ
تدُوسُ بِرِجلِهَا القَلبَا!
فليتَ الدَّربَ ما كانَتْ
ولَا كانَ الهوى دَربًا

XIV

... وأظنُّ أنِّيْ أعرفُ السِحرَ الَّذيْ
في الحينِ يَمزُجُ غيمَتينِ بيُسرِ
قلبانِ يأتلفانِ في شرعِ الهوى
في طرفةٍ كالسِّحرِ سرُّهُ يَسْرِيْ
هو سرُّ كَسرِ قيودِ رُوحيْ والدَّوا
تِريَاقُ سُمِّ البَيْنِ دونَهُ خَمرِيْ
فإذا حضنتُكِ لحظَةً ذُقتُ الجَوى
وذوَتْ شرارَةُ خافِقيْ في السِّرِ
وتناثَرتْ رغباتُ روحيْ في الهَوا
والحبُّ وحدَهُ شُعلتِي كالجَمرِ
تنهالُ فوقَ القلبِ سيْلًا جارفًا
لتطيحَ كلَّ شكوكِهِ إِنْ تَجري
سيظلُّ حبِّيْ وحدهُ لكِ ملجأً
بروائع الأفكارِ والأحلامِ...

لوْ كُنتُ مِغوارًا بلامةِ حربِ
أقوى الفوارسِ سيِّدَ الشُجعانِ
لاجتزتُ أعدائيْ إليكِ مُبارزًا
أجلُو طَريقَ الوصلِ كالولهانِ
وأحطِّمُ العقباتِ لستُ بعابئ
في قتلِ تِنِّينٍ وَرا الجُدرانِ
لسلبْتُ من قاعِ البِحارِ كنوزَهُ
وحَملتها إلى قدميْكِ يا ريحَاني
لهدمتُ أبراجَ القلاعِ بسطوتِي
بروائع الأفكارِ والأحلامِ...

لكنّنيْ ذاكَ المُغَفَّلُ في الهوى
بين الغِنَا والنَّوحِ في إدمَانِ
والقلبُ مجذوبٌ بأوجاعِ الدُّنَا
والفكرُ بالأوطانِ والإنسانِ!
ويجوبُ في فقرٍ ويحلُمُ بالسَّمَا
ينوي التقاطَ شهابِها بثَوانِ
لكنَّهُ قربَ الحبيبَةِ لا يَجدْ
قولًا يُقالُ يظلُّ كالحيرانِ
بسهولة يجتازُ حُلمًا رائعًا
أمَّا السَّعادة لا تُنال.. أمانيْ
ولقد تأخَّر باكيًا مشغولًا
بروائع الأفكارِ والأحلامِ...

XV

مَعنَى السَّعادةِ ما يكون؟ أفيْ الظِّلالِ –
الخادعاتِ.. خيانةِ الحُبِّ؟
قد كُنتِ كأسًا لاهبًا شبِقًا يبثُّ –
بيْ الحياةَ.. طَعنتِ لي قلبيْ!
أنتِ الخِداعُ.. الوهمُ في التَّفكيرِ –
مأساةٌ تَدُومُ وفادِحُ الذَّنبِ

أوشَكتُ أنْ ألقيْ عليْكِ القبضَ في
شركِ الطُّيُورِ فَفُزتِ بالهَرَبِ
أفلتِّ.. طِرتِ إلى المدى لمْ أقوَ –
خلفَكِ أنْ أطيرَ لعاليَ السُحُبِ
وقبَعتُ فيْ حُزنِيْ وحيدًا شاكيًا
ظِلَّ الخِداعِ وسيرةَ الكَذِبِ

كانت حياتِيْ كتلةَ الوهمِ، انتهتْ
بفراقِنَا لنَعيشَ كربَ الانفصالْ
ولعلَّ ذلكَ مِنْ نصيْبي.. إنَّمَا
يتمزَّقُ القلبُ اشتعالًا في اشتعالْ
إن كُنتِ أنتِ الظِّلَّ والحُلْمَ المُحالْ

فلِمَ اهتزازُ الرُّوحُ من فقدِ الخَيَالْ!
إنْ كنتِ حُلمَ شبابي الذاويْ الَّذيْ
في سحرِ إغواءٍ تهاوى كالخيَالْ
لكنَّما الدُّنيا بدونك فارغة
وحديْ أعيشُ لظى تشظِّي الاختلال
كشليمهلَ* أضعتُ ظِلِّيْ هائمًا
ما نفعُ ذي الدُّنيَا بدونك؟ لا، مُحالْ!
فخسارَتِيْ رزءٌ ولا تعويض إنْ
لم تُملَ كأسُ الرُّوحِ دومًا بالوِصَالْ

---

*. بيتر شليمهل: بطل قصّة الكاتب والشاعر الألماني ألبرت فون شامنسّو (*1781-1838*)، وهي بعنوان "قصّة بيتر شليمهل المدهشة»، صدرت سنة *1813*، تروي حكاية بيتر الذي أضاع ظلّه ومغامراته ومصيره.

XVI

إذا ما افترقنَا..
كطُولِ الدَّهرِ تمتدُّ الثوانِيْ
وبالقُربِ مِنكِ..
أعانِيْ مِن قُليْبيْ مَا أعانِيْ
وفِيْ البُعدِ عنكِ..
يَهُدُّ ليَ الصَّقيْعُ ذُرى كيَانِيْ
ولمَّا أراكِ..
سيَحترقُ الفؤادُ بِنارِ جَانِ
ونحوَ لقاكِ..
تطُوفُ بيَ الملائكُ لِلجِنَانِ
وما إنْ أراكِ..
تُطارِدُنِيْ الجَحيمُ طِرَادَ جَانِ

فَقدْتُ سَلامَ رُوحيْ والسَّكيْنَةْ
بقُربِكِ أوْ بِبُعدِكِ يا عُيُونِيْ
فلا الدُّنيَا ستقبَلُ بيْ ضنيْنًا
وأبوابُ السَّمَاء تُصَدُّ دُونِيْ

XVII

إذَا سَمِعتِ بُكاءً تَحتَ شُبَّاكِكْ
نَوحًا بِلَيْلٍ بَهيْمٍ يَعصُرُ القَلبَا
فلا تُبَالِيْ ولا تُودِّعيْ نَومَكْ
عُودِيْ إليهِ.. دعِيْ الشُّبَاكَ والدَّربَا

عُصفورتِي، فَهُنَا لا اليُتمُ يُبكينِيْ
لا الفَقرُ يُؤلمُنيْ.. لا أشتَكِيْ خَطبَا
ذَا نَعيُ حُبِّي الَّذيْ لا حدَّ يَحوِيهِ
بِحرقَةٍ أبْكِيْ.. أودِّعُ الحُبَّا

XVIII

يَا وَردةً - لا كالوردِ - تزهِّرينْ
ينسابُ عِطرُكِ في شذا الإصبَاحِ
لوْ كُنتِ فيْ حَشدٍ بِبحرٍ تسبَحينْ
أغشَى بوجهِكِ.. بالضِّيَا الوضَّاحِ
نورُ القداسَةِ والطَّهارةُ واليَقينْ
يا وردةً صمَدت بوجهِ رياحِ

روحيْ حَوَتكِ لِنُضرةٍ مُمتنَّةْ
فصبَبتُها النَّغماتِ في ألحَانيْ
وسِهامُ لَحظِكِ تضبُطُ الإيقاعَ
سرُّ التَّناغُمِ في اللُّمى مرجانِي
عصفورتي في عنبَرٍ بِلَّوري
في حِصنِكِ الأبديِّ ذي الأفنانِ
ظلِّيْ ازهَريْ في خافِقي ما دامتْ
أشعارُ حُبِّيْ تستحيلُ أغانِيْ

XIX

كثَورٍ تحتَ نيْرٍ هائمٌ أبدًا
يمرُّ اليومُ تِلوَ اليَومِ دونَ غدِ
أنوءُ أسىً.. لهِيْبُ النَّارِ قد خمدَا
أسيرُ بدَفعِ ما في القلبِ من جَلَدِ

مضى زمَنٌ على هجريْ لأحلامِيْ
نأيتُ بهِ، وجفَّتْ بئرُ أوهامِيْ
كمَا جفَّ الكلامُ، وموسِميْ النَّاميْ
يَباسُ حصادِه قحلٌ بلا مَدَدِ

وأحصُدُ سنبُلاتٍ قاوَمَت بَرَدًا
من القمحِ الرديْ وتقلَّصَتْ عددًا
مضى زمني.. مضى لمْ ينتظرْ أحدًا
وحلَّ خريفُ عمرٍ ثاقلَ الرَّمَدِ

XX

الثَّلجُ المُنهمِرُ رزيَّتْهْ
يتساقَطُ أسرابًا أسرابْ
كجُموعِ ذُبابٍ إثرَ ذُبابْ
بسماءٍ سُدَّتْ خلفَ حِجَابْ
أسرابُ الثَّلج جليديَّتْهْ

أسرابُ الحُزنِ رماديَّتْهْ
زخَّاتٌ في إثرِهَا زخَّاتْ
حُجُبٌ لمْ تترِكْ أيَّ حيَاةْ
أو أيَّ جمَالٍ.. أيَّ فُتاتْ
والذكرى حُقُولٌ ورديَّة

كَفَنٌ غطَّى الأرضَ الحيَّتْهْ
ويَشدُّ بإحكامٍ مَسَدًا
في جِيْدِ حياةٍ متَّقِدةْ
في جذوةِ نارِ الرُّوح رَدَى
بالثِقْلِ لِتذوِيْ مطفيَّتْهْ

القبضة الثالثة

(1896)

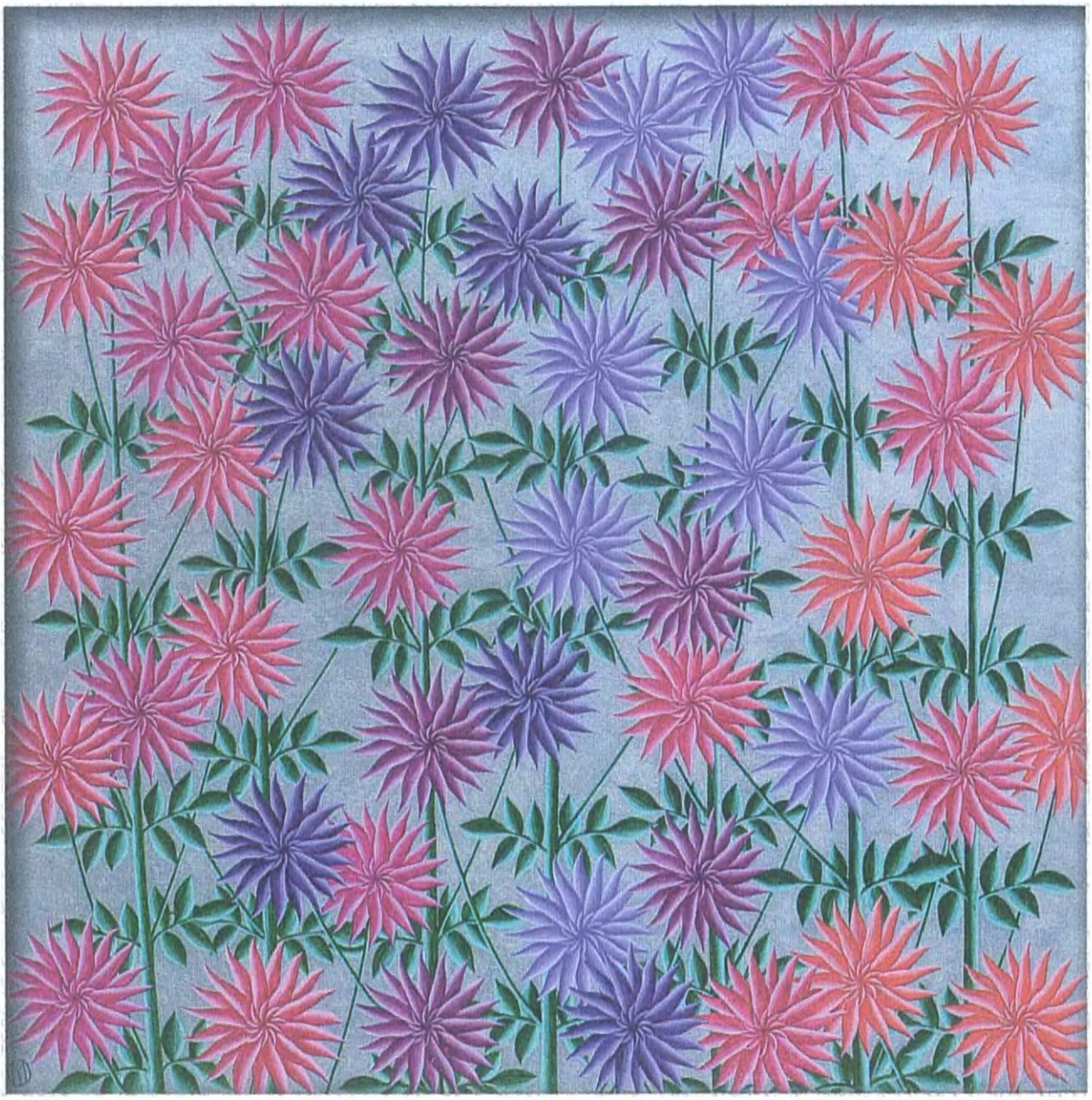

I

النَّهرُ إنْ تجمَّدَتْ مياهُهُ
لا يَبعثُ الأمواجَ كالجِبالْ
زُجاجَةُ المِصبَاحِ إنْ تحطَّمتْ
لا ترقُصُ الأنوارُ فِيْ اشتِعالْ
وترٌ إذا تَقطَّعتْ أوصالُهُ
لا تَنتَظرْ ألحَانَهُ فِيْ الحَالْ

لكنْ أراهَا تُسمعُ الألحانْ
مِن تحتِ ثِقلِ الهمِّ والعذابِ
تحتاجُ ثِقلًا فوقَهُ أحزَانْ
لتَخرجَ الأنغامُ مِنْ قُلُوبِ
أوتارُ قلبيْ مثلَ أجراسٍ علا
رنِيْنُها يطغَى على نحيْبي

II

ماتَتْ! نعمْ ماتَتْ «بَمْ» و» بَمْ بَمْ»
ناقُوسُ نَعيٍ قارعٍ في النَّفسِ
جِرْسٌ يُقطِّعُ مُهجَتِيْ.. جِرسُ الألمْ
للأرضِ يهوي بيْ أذىً في رأسيْ

ويقضُّ حَنجَرتي ليَخنُقَنِيْ، أرى
حلقاتِ نورٍ مُبهِرٍ ترعَى السَّقمْ
شبحًا يُطاردُنِيْ وفيْ قلبي نِقَمْ
ماتَتْ! نعم.. ماتَتْ نعمْ، ماتَتْ نَعمْ!

تتألَّقُ الوردَاتُ فيْ الخدَّيْنْ
والتُّوتُ حُمرتُهُ على الشَّفتينْ
وتُعكِّرُ الصفوَ المُسَالمِ كالحُلْمْ
رغباتيَ المسجاةُ فوق يدينْ

نَاقُوسُ مَوتٍ قارعٍ حدَّ الألمْ
يزدادُ قرعًا بيْ لأبكيْ كاليتيمْ
فالمَوتُ مَزَّقَ جمعَ أحلامِي القُديمْ
«أصمُت، فقدْ ماتَتْ! وصرحُك مُنحطِمْ!»

أجنِنْتُ أم لا؟ كيف أعرِفُ إنْ جُنِنْتْ؟
كيفَ احتمَلتُ الصَّبرَ إن لمْ أمسَسِ؟
عينَاي لا تَعِيانِ هولَ المَوتْ
تَتسمَّرانِ على زِنادِ مسَدَّسِ

هِيَ أجمَلُ الشُعلاتِ في عُمريْ انطفتْ
لا نُورَ عِنديْ هاديًا.. مَنْ مؤنِسيْ؟
فلقدْ ذوى قلبِيْ تمزَّقَ مُذْ ذوتْ
مَاتَتْ! نعم، الويلُ ليْ.. لتدنُّسِيْ

القلبُ يُحرِقُهُ الألمْ.. فقطِ الألمْ
ويدُورُ في كلِّ العرُوقِ يدورُ
رَطْنٌ يُقطِّعُ مُهجتِيْ.. رَطْنُ الألمْ
جَفّتْ دُموعيْ والضِياءُ يَغورُ
وأنا وحيدٌ ها هُنَا، ألمِيْ التأمْ
أهوِيْ إلى قعرٍ صَداهُ سَعيرُ
والحلقُ يَخنُقُهُ التأوُّهُ في الظُلَمْ
ماتَتْ؟ أنَا مَنْ ماتَ.. ماتَ النُّورُ

III

بِلا عَمَلٍ إلى الأبَدِ استَرحتُ
إذا القلقُ اعتراكِ فلا أُبَاليْ
ولا آمالُ شعبيْ ذات معنىً
ولا التَّاريخُ أو ساحُ النِّضَالِ
ولا المجدُ، التَّقدُّمُ والتَّرقِّيْ
ولا أحلامُهُ ترقى لِحَاليْ
أنا مُتُّ.

خرابُ الكوْنِ أهوَنُ ما أردتُ
وأهوالُ الحروبِ أو القِتَالِ
فلا عيشٌ أماميْ أشتهيْهِ
وليسَ يهمُّنِيْ ذلُّ السُّؤالِ
لقدْ أخمدتُ رُوحيْ واسترحتُ
زهِدتُ بِمَا معي زادِي ومَاليْ
أنا مُتُّ.

شهابُ النَّصرِ فليوميْ إليكِ
بأجنِحَةٍ مِنَ الأملِ المُغاليْ
فآماليْ مُسجَّاةٌ أماميْ
وقاربُ عيْشتيْ مُرخى الحِبَالِ
بلا فَرحٍ، أدانتني حياتي،
بلا صارٍ رَسَت.. والشطُّ خالِ
أنا مُتُّ

IV

عَبَرتُ بعتمَةٍ يَومًا كظلٍّ
زُقاقًا مُقمِرًا والجوُّ صيْفُ
كحبَّاتِ النَّدى سطعتْ نُجُومٌ
تَشِعُّ منَ السَّمَاء ولا تكُفُّ
وتسكُبُ عِطرَهَا في الرُّوحِ سِحرًا
يُلاطفُنِيْ السنَا ومِزاجي كيفُ
ورُوحيْ حلَّقتْ فوق السُّهوبِ
لتسبحَ في الرُّبى.. فيها تُزَفُّ
زهورُ الخُلدِ تَصدَحُ بالأغانِيْ...
هيَ الذِّكرى، وباقِيْ العُمرِ نَزفُ

ظلامٌ دامِسٌ يجتاحُ يوميْ
زُقاقِيْ مُعتِمٌ، أين النُّجُومُ؟
تلاشتْ، أظلمتْ، فازددتُ كُرهًا
لها.. للنُّورِ وازدادَ الوُجومُ
لها.. للأغنيات.. جمالِ عَيشٍ
لخيرٍ لمْ يدُم.. قهريْ يدُومُ
كذلك قد كرهتُ الحُبَّ نفسَهْ
وبي توقٌ لأنسى.. ذا جحيمُ
أحبُّ هدوءَ مقبَرةٍ ووَحْشَةْ
أقيمُ بِها.. وفي نفسيْ تُقيمُ

عبرتُ بعتمَةٍ يومًا زُقاقًا
بلا فِكَرٍ مضيتُ كظلِّ ظلِّيْ
وحول النَّاس أشباحُ الظَّلامِ
وهمسٌ عن هُراء الحبِّ كُحليْ

لعشَّاق.. وبينَهُمُ مغنٍّ
يُرتِّلُ شِعرَهُ واللَّحنُ يَغليْ
مَضيْتُ وحسْرَتِيْ خَدَرٌ بِجسمِيْ
ولا تِرياقَ للأحزانِ يُجليْ
وأدركُ أنَّنِيْ قبرٌ يسيرُ
وأبوابُ الحياةِ وراءَ قفلِ
وأنَّ الرُّوح تَهويْ للحضيْضِ
بلا فرحٍ وحُزنٍ.. في تَخلٍ
ولا لحنِيْ سيصدَحُ مِن جديدٍ
بحُلمِ الرُّوح.. والحُبِّ المُذِلِّ

٧

مِنْ فوقِ أحواضِ الزُّهورِ العاطِرةْ
لعبَ الهوا بستَائر متهدِّلةْ
بيتٌ بِنافذتينِ من لونِ الضيَاءْ
أبوابُهُ للغيرِ دومًا مُقفلَةْ
هُنَا غُرفةٌ للنَّومِ بيضاءُ السريرِ –
وَمطبخٌ تحتلُّ وسطهُ طاوِلةْ

وعلى الجِدارِ تموضعتْ روزنَامةٌ
صورٌ وساعةُ حائطٍ بعقاربِ
مِصباحُ نورٍ للقراءةِ مطفَأٌ
بغطائهِ الشَّفَّافِ تحتَ ذوائِبِ
صورٌ كذلكَ في إطاراتِ الخشبْ
وقفتْ على كومودينةٍ في الجانبِ

وهُناكَ تستلقيْ السَّعادةُ كُلُّهَا
في وحدةٍ مصحوبَةٍ بترقُّبِ
لمْ تنتظرْنِيْ فيْ الهوى بل غائِبٌ
عنها نأى، طوبى لذاكَ الغائبِ

وتشِعُّ عيناها بريقًا ناعِمًا
وأنا كظلٍّ راصدٍ مُترقِّبِ
خلفَ النَّوافِذِ في التَّخفِّيْ أنظُرُ
نحوَ النَّعيمِ، وذا النَّعيمُ يضنُّ بيْ

ولَّيْتُ أدباريْ أهرولُ شابِكًا
كفَّيَّ منْ يأسٍ أدمدِمُ فيْ جُنُونْ
كالوحشِ يَهرعُ نَحوَ غابتِهِ لكيْ،
في جُحرِ وحدتِهِ، يلاقِيهِ المَنُونْ

VI

أظُنُّ اليَأسَ يَملِكُنِيْ، أظُنُّ
عِبادَ اللهِ يَملِكُهُمْ بصمتِ
فدُودَتُهُ، بِلا رُوحٍ، تزِنُّ
وتَنخُرُهُمْ ببطْءٍ كلَّ وقتِ

ومَا قرَّبتُهُ فِيْ العَيشِ مِنِّيْ
ومَا فضَّلتُهُ وازدادَ قُربًا
أراهُ تحتَ سَطوةِ نملَتينِ
ووسطَ تنَازُعٍ سحلًا وضربًا

فيُمكِنُ أنْ يُلاقِيْ السحقَ حيْنًا
وأنْ يُلقى بزاويةٍ ويُرمى
ولستُ مدافِعًا عنهُ مُعِينًا
ولا أقوى على الإجهَاشِ غمًّا

أراقِبُ كيف ألطفَ مِن لطيفٍ
يدٌ للشَّرِ تسقيْهِ الإبادةْ
كثُعبَانٍ، بلا قلبٍ، عنيفٍ
يعِيثُ بِجنَّتِيْ العُليَا فسَادًا

وحَنجَرتِيْ يُعاجِلُهَا لهيبٌ
حرارةُ موجةِ الحنقِ السَّقيْمَة
فألعنُ عيشَةً قسَّاها حوبٌ
غدوتُ بها كسُخريّة عديمَةْ

VII

أنَا اللَّاحيُّ واللَّاميتُ أمضيْ
ثقيلَ الحِمْلِ، أيَّامِيْ مُهينَةْ،
أنُوءُ بِهِ وفي الطَّابُورِ خَوضيْ
أنُوحُ وأكرَهُ النَّفسَ الزَّمِيْنَةْ
أيّا سوطَ الظَّلامِ تعالَ واقضِ
عليَّ بضربَةِ الحِقدِ اللَّعيْنَةْ

ولستُ بِمُشفِقٍ مهمَا شفِقتُ
على الدُّنيَا على ما في الطبيعَةْ
خسرتُها كلَّها! مَاذا خسِرتُ؟
سنينًا عشتُهَا كانتْ مُضاعَة!
وماذا فِيْ غديْ وأنَا سقطتُ
بهَاويَةٍ من الظُلَمِ الفظيْعةْ

هوتْ ثقتيْ.. وأكرهُ ذا اللِّجَامَا
يُخدِّرُنِيْ ويخنُقُنيْ كثورِ
يُحيطُ بِرقبتِيْ عشرينَ عامًا
أعيشُ بِلا حمىً أو مُستقَرِّ
كغُصنٍ هائمٍ في الماءِ عامَا
بلا أثرٍ مضى في وسطِ نهرِ

بِلا جَدوى صموديْ وانهياريْ
تضيْعُ قوايْ في أحلامِ مسعىْ
يسُودُ الشَّرُّ يكسرُ ليْ خياريْ
رضختُ.. استوطنتْ في القلبِ أفعىْ

VIII

نوَيتُ الانتحارَ وخضتُ موتِيْ
سأحْطِمُ عظمِ جُمجُمَتِيْ الغبيَّةْ
بقوَّةِ ساعِدِيْ والعزمُ يَأتِيْ
سأسحقُ رهبَةَ الآلامِ فيَّ

أفُرُّ مِنَ الشِّبَاكِ الغاليَاتِ
وأطلِقُ صرخةَ المَوتِ الهنيَّةْ
ولكنِّيْ خَنَعتُ ككلِّ وَقتِ
ووحشُ الجُبنِ يستَوليْ عليَّ

وأبكيْ مِثلَ طِفلٍ في الزَّوايَا
أعيشُ كما الزَّواحفِ.. أو كعُشبَةْ
بلا هدفٍ.. بلا حُلمٍ وغايَةْ
بموطنِ قسوَةٍ صفرُ المحبَّةْ
يجفِّفُ مَنبَعيْ حتَّى النِّهايةْ
ويحرِمُنِيْ الوصولَ إلى المَصَبَّ

وأعرفُ.. عيشَتِيْ لا تستحقُّ
فعيشٌ في الفراغِ بلا جديدِ
خسرتُ.. جميعُ ما أهوى هباءٌ
وأعرفُ أنَّ تِرياقِيْ الوحيدِ
رصاصٌ فيْ الجبينِ هوَ الدواءُ
ولكنِّي جبانٌ.. لا أريدُ
وآلاميْ تعيش معيْ وتسعى
إلى هدفٍ، يناديْ، وحيدِ

إلى ضغطِ الزِّنادِ، أجلْ، لمرّةْ
فيرعِدُ مثلَ ناقوسٍ شريدِ
كلعنٍ جمَّدَ الدمَ في العُروقِ
يطيرُ شرارَةً نحو البعِيدِ

هيَ المُتَعُ استحالتْ كمَّ حُزنٍ
وما رُدَّ الجَمالُ إلى الفؤادِ
ولا شفتِيْ يُراوِدُهَا ابتسامٌ
ولا جِفنيْ يُنعَّمُ بالرُّقادِ

وعيْشيْ يسجُنُ الرَّوحَ انتقامًا
يميتُ بيَ الحنينَ بلا مَعَادِ
بقتلِ النَّفسِ آملُ رميَ لعنٍ
عليكِ أيَا حبيبةُ في البِعَادِ

بسحركِ ملهبِ القلبِ الشقيِّ
بسخريةٍ جَرحتِ بهَا فؤاديْ
حياتِيْ لم تَجدْ للقلبِ وردًا
ودَومًا كانتِ الأشواكَ تُهديْ

وتقتُلُنيْ الرَّغائبُ كلَّ حينٍ
أريدُ العبَّ مِن حُسنٍ وقدِّ
كطفلٍ مُهمَلٍ فيْ الغابِ أبكيْ
وألقى من فؤادِكِ كلَّ صدِّ
مشاعِرُكِ الهَنَا.. لكنْ لغيريْ
وتبقى صرختي في الحلقِ قيْديْ

IX

مُنِحتُ الحُبَّ في عُمريْ ثلاثًا كُنَّ:
كزنبَقَةٍ بلونِ الطُّهرِ أولاهنَّ
كنسجِ الآه أحلامًا بفيء رجَاءْ

كظلِّ فراشةٍ فضِّيَّةٍ غُسِلَتْ
بعنبَرِ بَرقِ نوَّارٍ مُذِ ارتحَلَتْ
إلى سُحُبٍ كساها الأُرجُوانُ رداءْ

ولَمْ تَرَ في الدُّنَا شيئًا سِوى الجنَّةْ
براءةُ طِفلَةٍ للعَيشِ مُمتنَّةْ
تُزهِّرُ مثلَ مَوطِنِنَا بكلِّ عطَاءْ

ووُسْطاهنَّ مِن فخرِ الأميراتِ
كما القَمَرُ الوحيدُ شُحوبُها عاتِيْ
منَزَّهةٌ مُمَنَّعَةٌ بِفيضِ بَهاءْ

يَدِيْ لمَسَتَ، وصوتُهَا هامِسُ المَرثَاةْ
«رهِيْنَةُ وِحدَتِيْ.. لا أنتَميْ لِحيَاة»
وفي عتمِ الشُّقُوقِ تبخَّرَتْ كهبَاءْ

وآخِرهنَّ ذاتُ الحُسنِ وَحشيَّةْ
تُصادرُ كلَّ جارحةٍ وعينيَّ
تبثُّ الرُّعبَ في قلبِيْ تصبُّ بَلاءْ

وَجِلْتُ، أمَلتُ أنْ تَتعبْ: «غدًا ستمُلّْ
ستغرقُ فيْ مياه اللَّيْلِ أوْ فيْ الظِّلّْ»
فثارتْ خَمرةً عُلْويَّةً صَهباءْ

كمَا العَنْقَاء في صدريْ الشقيْ رَبَضَتْ
وعنْ قلبِيْ المُدَمَّى قطرَهُ لعقتْ
وبَاتَتْ فيْ هُدُوءٍ مُرعبٍ كدراءْ

وكُنتُ أظُنُّهَا تعِبَتْ مع الأيَّام
ستنأى في ظلالٍ في الثَّرى وتنامْ
هُراءٌ! لمْ تدعنِيْ لحظةً بِهناءْ

على صدرِيْ تَنامُ وملؤُها اطمئنَانْ
كوحشٍ ذيْ مخالبِ، منتشٍ شبعانْ
وفجأةً، تَفتحُ العيْنينِ باستعداءْ

تَنامُ بنِصفِ عينٍ تَرهَبُ الخُسرانْ
وحينًا في التهابٍ تُفتحُ العَينَانْ
شراراتٌ تُطايرُ مِنهُما رعنَاء

ويلتَمِعُ البريقُ ليبهِرَ الأعماقْ
فؤاديْ راضِخًا شبِقًا إليْهَا يُساق
يُوَجِّهُهُ الحَنينُ بأمرِها إنْ شاءْ

بِهَا وترُ النَّعيمِ يدومُ في قلبِيْ
تُهاجِرنِيْ الجِراحُ وسطوةُ الرُّعبِ
ويطرقُ باب صدريْ لحنُهُ بسخَاء

فرُوحي بُلبُلٌ في الفخِّ قدْ سُجِنَا
بلا جَدوى يُصارعُ والفرارُ غِنىً
طريقُهُ بيِّنٌ مع أنَّهُ الظَّلَمَاءْ
لهَاوِيَةٍ يُقادُ مُنعَّمًا بشَقاءْ

X

اللَّيْلُ أرخى سِتْرَهُ فوق الملَا
رضخوا لسُلطانِ الظَّلامِ وناموا
إلّايَ أطرقُ في ظلامِهِ باحثًا
عن مسْتَقرٍّ، قد جَفَانِي مَنامُ

عَيْنَايَ مُتعبتانِ، قلبيْ راجفٌ
فمتى تُهدِّئُ رَوعَهُ الأيامُ؟
وحديْ أسيرُ وجُرحُ قلبي مُؤرقٌ
وعلى وجيبِهِ حطَّتِ الآثامُ

أبكيْ لإثمٍ.. ثمَّ أبكيْ تائبًا
مِمَّنْ بقلبيْ مِنْ هواها سِهامُ
سَكرى مناماتيْ بها.. بها وحدها
والروحُ سَكرى قد براها هيامُ

طارتْ بأجنحةِ الملائكِ نَحوها
أمسيتُ لا روحٌ ولا أحلامُ
غمرتني أحزانُ الشُّحوبِ سخِيَّةً
والجسمُ تُثْقِلُ عجْزَهُ الأسقامُ

يأسِيْ أراهُ كافيًا كيْ تختفيْ
كلُّ الضِيا.. وليَسْتمرَّ ظلامُ
مُلْقَىً بهاويةٍ بلا قعرٍ، هُنا
عتمُ الرُّطوبةِ بَاردٌ دوَّامُ

فيها زئيرُ الوحشِ جوعٌ كاسِرٌ
وأنينُ غابتِها، صَداهُ حطامُ
تمتصُّ أفعى ما تبقَّى منْ دمٍ
في القلبِ، أهربُ والضِّيا معدومُ

كيفَ المسيرُ ولا سنًا سبقَ الدَّويُّ
رعدٌ يهدِّدُ صارخًا ويحومُ
وأنَا مريْضٌ مرهقٌ صِفرُ القوى
ورحىً على صدْريْ، فكيفَ أقومُ

وَوَدَدْتُ لوْ أنِّيْ أكونُ لِلَحْظةٍ
فيْ البيتِ أسْعَدُ والهَنَا مقسومُ
لكنَّنِيْ تعِسٌ وحبُّكِ مُهْلِكيْ
ويدومُ حبُّك - لوْ سخِرتِ - يدومُ

وأودُّ لوْ أنِّيْ أضمُّكِ بُرهةً
في جنَّتيْ - تَتَحَقَّقُ الأحلامُ
أبقى بحضنِكِ لاثِمًا شَهْدَ اللُّمى
ذاتِ الرضاب المِسكُها مختومُ

فيْ يمِّ عينيكِ اللتينِ بلا قرار
أرميْ بروحي ساجدًا، وأنامُ
وهناك أحيَا أو أموتُ كمَا أشاءْ
لكنَّهُ الهذيانُ... والآلامُ

مطرٌ هُنَا والريحُ تعوي في المدى
وتصيحُ زوبعة: هيَ الأوهامُ
كيفَ الخلاصُ؟ أمَا هُنا منْ مَخرجٍ؟
قلبيْ يثُورُ.. تقُودُهُ الآثامُ

لا يأسَ بعدَ اليَومِ.. حطَّمتُ القُيُودْ
سأنالُهَا، لَو بُرهَةً، بزمانيْ
ثَمَنًا لأمنِيَةٍ تُعَشِّشُ في الفؤادْ
سأبيعُ رُوحيْ اليومَ للشَّيْطَانِ

وكأنَّ أمرًا خضَّنِيْ، في لحظةٍ،
كتَساقُطِ الأوراقِ.. يؤذنُ بالصَّقيعْ
غابَ الضِيَا.. نفسي تُريدُ عجيبَةً!!
الإيمانُ بالشَّيطانِ مهواهُ فظيعْ

XI

إِبْليسُ، يا إِبْليسُ يا روحَ النَّوَى
يا قاهِرًا، يا سَيْفَ أحلامِ الخَرابِ
وصَدى فراغِ الرُّوحِ والحُزنِ المُقيْمْ

إِسْمَعْ نداءاتِيْ، استجبْ، طالَ الجَوَى
سأكونُ عبْدَكَ رهْنَ مَهواكَ الرهيْبِ
كيْمَا تُهَدِّئَ خافقيْ هذا السَّقيمْ

أرضى بأهوالِ الجحيمِ وما حوى
حقِّقْ مُراديْ اليومَ يا عاليْ الجنابِ
ولمَرَّةٍ في العُمرِ اِسمَحْ يا كريمْ

أن أحتضنها لحظةً، أحيا الهوى
لك في المُقابِلِ أنْ أُخَلَّدَ في العذابِ
وأبيعَ دنيانا وجنَّاتِ النَّعيمْ

XII

في عتمةٍ مكسُورةِ الأبعادِ
لم يبدُ ليْ في شكلِهِ المعتادِ
ما كانَ ذا قرنينِ أو ذيلٍ ولا
ذا حافرينِ ولا بثوبِ حصادِ
بل كان في هندامِ اِبنِ مدينةٍ
بغطاءِ رأسٍ مائلٍ لسوادِ
ساءلتُ نفسيْ إنْ رأيتُه سابقًا
يبدو من الجزويتِ أو كيهوديْ!

منْ عتمةٍ تُخفيْ ملامحَ وجههِ
ظهرتْ يدٌ منْ جسمِهِ المشدُودِ
دفعتني من كتفي وطارتْ ضِحكةٌ
خرقاءُ، ذاتُ صدىً، وفي ترددِ،
«ها أنت ذا!» – جذِلًا أضاف مُجالسي
وأنا أتابعُ هزءَهُ بجمودِ –
«فطنٌ، ومُحترمٌ، وذو علمٍ إذنْ،
وتقولُ إنَّك مُلحدٌ ووجوديْ،
ماذا دهاكَ لتلعنَ الشيطانَ، هلْ
هذا هُراءٌ خارجَ المقصودِ!؟».

«يا سيِّديْ أنتَ الذي لا تؤمنُ
بالله والشيطانِ والميعادِ
فلقد سمِعتُك مصغيًا يومًا على
أعتابِ بيتكَ قبل وقتِ رُقادِ
أفصحتَ عمَّا في السريرةِ ساخطًا
والسُخطُ يُظهرُ معدنَ الأفرادِ.

دعني أعيدُ عليكَ ما ردَّدْتَهُ..
أنا لا أظنُّكَ منكرَ الإلحادِ
لكنَّ أمرًا ما اعتراكَ فبدَّلا
من حالكَ الأولى لحال تضَادِ
واعذرني أنّي لمْ أقدّم نفسي لكْ،
وأظنُّ أنَّكَ مُدركٌ بوجوديْ
بل ربَّما تَهوىْ التقارُبَ بيْنَنا
وتخالُنيْ أقوى من المَعبُودِ!
وتخالُ دربيْ للجحيمِ أحبَّ منْ
سحرِ الصراط المستقيمِ الهادي!».

لكنَّنيْ أُثنيْ على الثقة الَّتي
أوليتني.. أنا راغبٌ بمزيدِ،
مع أنَّني أدريْ بأنَّ سلوكَك
دون اختياركَ جاء بالتأكيدِ
إذ لم تكُنْ ذا وعي حينَ لعنتنيْ
واللَّعنُ للشيطانِ غيرُ مفيدِ
والآنَ، أخبرني بصدقٍ ما الذي
تبغيهِ حين تقومُ، بالتحديدِ،
في طمسِ أفكارٍ بوحلِ مذلَّةٍ
ثم التَلَطِّيْ في حِمَى التَّنديدِ؟

فانظرْ إلامَ تقودُ قلَّةُ حِرصِكَ:
تهشيمُ مُعتَقَدٍ، وسَحْقُ عقودِ،
والسَّعيُ نحوَ جحيمِ شيطانٍ غدا
يُغويك في خذلانِ عقلٍ هادِ.
والرُّوحُ! حتَّى الرُّوحِ يُمْكِنُ زجُّهَا

في قلَّةِ الأدبِ ابتغاءَ فسادِ.
واعذرني إنْ أطلقتُ ضحكةَ شامتٍ،
فَلَقَدْ ذَكرتُ الرُّوحَ! يا لجِحُودِي!

فأنَا أراكَ إلى الجحيمِ ونارِها
تسعى لتُحرقَ في لَظَى التَّأبيدِ،
أنسيتَ يومَ صرختَ: ما الرُّوحُ سوى
حُزَمٍ من الأعصابِ في الأجسادِ،
فإذا قضى الإنسانُ ماتَتْ رُوحُهُ...
عَجَبًا.. أتُخفي جمْرَةً برمادِ!

أتخالُ نفسكَ لاعبًا في ميْسَرٍ
رَفَعَ الرِّهَانَ وزاد في الأعدادِ
وبِخِفَّةٍ - منْ كُمِّهِ - رمى ورْقَةً
غُشًّا وظُلْمًا يحتفي بنقودِ!
هو ذاك أنت وذاك ما تحتاجُه،
ما مَغنميْ من ربحكَ المنشُودِ؟
لا شيء! هل هذا جوابٌ مُقنِعٌ؟
هل ينفعُ الشيطانَ رقصُ قرودِ!

لا يا عزيزيْ، قد تأخَّرتَ فحسبْ،
وغدَوتَ مُلْكَ يَديْ بدونِ رصيدِ
وملكتُ روحَك منذ رَدحٍ، لم تعدْ
حُرًا تُقايِضُهَا.. وتندَهُ: عُوديْ!
أتَظُنُّ أنِّي أبلهُ كيْ أدفعَ..
والمُلكُ مُلكيْ والنقودُ نقودي؟
يا سيِّديْ آنَ الأوانُ لِتَرشُدَا
فالحظُّ بابٌ مُحْكَمُ الإيْصَادِ!

قبلَ الفراق لديَّ أمرٌ آخرُ،
عمَّنْ تَهيمُ بها هيامَ شَريدِ..
باتَتْ بِعُهْدَتِنا، فلا تسألْ، وقُمْ
هاجرْ إليها من حريقِ فؤادِ
هيَ في الجحيم وسوف أهديها لكَ،
في يوم تصفيةٍ ويوم سَدَادِ.

خَتَمَ اللِّقاءَ بضحكةٍ، ثم اختفى،
وأنا مكاني جامدٌ كعمودِ
وبنارِ عارِ الروح وجهي لاهبٌ،
كشرارةٍ حَطَّتْ على بارودِ
رُوحيْ ولا يحتاجها الشيطان بلْ،
ضيَّعْتُها... وحبيبَتي، وجُهُودِي!

XIII

أُمَّاهُ يا خيرَ الأحبَّةِ خمِّنِي
في أيِّ ساعاتِ الشرورِ ولدْتِنِيْ؟
للنُّور في زمن الأسى أخرجتِني!

هلْ بالخطيئة قدْ حَملتِ بلا قرانْ،
أمْ أنَّني في الرَّحمِ ملعونٌ مدانْ؟
أمْ تلكَ سُخريةٌ منَ القدرِ الدَنِي!

لمْ تُعطِنِيْ حُسْنًا لأزهُوَ فيْ البَشَرْ
لمْ تمنحيني قوَّةً تطحُو الحَجَرْ
نسَبًا، كذلكَ، راقِيًا لم تُعطِنِيْ!

ووَلدْتِنِيْ في اليُتْمِ أسألُ عن أبي
ومعيْ ثلاثًا كنَّ أصلُ مصائبيْ،
أبدًا تُلازمُنيْ وتسكنُ مسكني.

أولى المآسيْ طيبةٌ في قلبي
المتناغمِ الحسَّاسِ فيْ الحبِّ
وورثتُها عن قلبكِ المستيقنِ

ثانيْ المصائبِ أصليَ الفلَّاحيْ
نسبي وضيعٌ، في الظلامِ بَراحِيْ
خُبزيْ السُّمُومُ ولا مكانَ لمدفني.

والثَّالثةْ، روحيْ الفخورةُ تشعلُ
تأبى الإهانة، منَّةً لا تقبلُ
تنقضُّ صوبَ المُعتدي لا تنثنِيْ

أمَّاهُ يا خيرَ الأحبَّةِ هوِّنِيْ..
لا تبكِيْ وِحْدتك، انتهي، لا تحزني!
فلقد بُليتُ بما يُطيحُ توازني.

لا تحزني إنْ عِشتِ وحدَكِ في الحياةْ،
أو كنتِ وحدكِ حينَ تحضُرُكِ الوفاةْ،
لا اِبنَ عندكِ، حينذاكَ، لتُدفني
لا تحزني، أمسيتُ لا حولٌ لديَّْ
كيما أزحزحَ آلةَ العيشِ الشقيَّْ
فلقد ضللتُ.. مَدَى الشقاءِ يَهدُّنِيْ

لم تبقَ عنديْ قدرةٌ كيْ أصمُدا
هيَ غيمةٌ نشرتْ عليَّ الأسْوَدا
دارتْ رَحَاها بالهزيمِ الدَّاكنِ

لا رغبَة عندِيْ لأبقى عائقًا
فيْ وَجهِ منْ أهوَىْ وأغدو حانِقًا
وحشًا بِلا وعيٍ، خسيسَ المعدنِ

إن كانَ ذلكَ من ألاعيبِ القَدَرْ
فالعتمُ أفضلُ من أصابيحِ الزَهِرْ،
وليغدُ هذا الليلُ دومًا موطنِيْ

XIV

أغْنِيَتِيْ، عُصفُورَتِيْ المكْلُومةْ
عمَّا قريبٍ أنتِ، أيضًا، تصمُتينْ
مثقَلَةً نوحًا، شذًا.. مظلُومةْ
لكنَّ وقتَنَا انتهى.. سترحلينْ

يكفينَا نكأً للجراحِ النَّازِفَةْ
يكفينَا استجداءنَا للحبِّ
في كلِّ لحنٍ.. كلِّ آهٍ عازِفةْ
رُوِّيْتِ قَطْرًا مِنْ دمَاءِ القلبْ

معْ كلِّ لحنٍ.. نُوتَةً نُوتةْ
تذوينَ إيقاعًا وتضمُرينْ
جُرِّعتِ سُمَّ الحُزنِ مَكبُوتةْ
لكنَّ وقتَنَا انتهى.. سترحلينْ

XV

وداعًا.. وداعًا، سأذكرُ وعديْ
بأَنِّيْ سأنساكِ حتَّى المماتِ
سأنْسَى المُحَيَّا المُوَشَّى بوردِ
وأرحلُ وحديْ، بدونِ التفاتِ

ولنْ تعرفي أينَ يمضيْ شِراعي
بأيِّ الأراضي... وأيِّ الجهاتِ
ولنْ تعرفي كيفَ أُبْرِي جِراحي
وأيُّ مدادٍ سَيَمْلَا دَواتي

وأنتِ أحبِّيْ الحياةَ بدوني
وكوني مثالَ النِسَا الصالحاتِ
وربِّيْ العيالَ ولا تذكُريني
وكوني لزوجكِ طوقَ النَّجاةِ

ولا تقرأي منْ قَصيدِ مَقالي
ولا تسبحي في ضِيا كلماتي
ولا تقصُدي شَبَحِي في اللَّيالي
تناجيهِ منْ أرقِ العاشقاتِ

وإنْ ذكرُوني غدًا لا تُبالي
أيَا وردةً في الرُّبَى الذَّابِلات
وغطِّي شحوبَك دومًا وقُولي:
ومنْ هوَ ذَا؟ لمْ أرَهْ في حياتي!

XVI

إنْ لم تُداوِيْ القلبَ، أغنِيَتِيْ، فلا
جَدوى ستُرجى مِنكِ.. منْ لحنٍ يضيعْ!
فالشَّمسُ خلفَ الغيمِ كاذِبَةٌ، ومَا
في الرُّوحِ مِنْ عَفَنٍ يحُنُّ إلى الرَّبِيعْ

إنْ لمْ تَفُلِّيْ خافِقِيْ كَربًا بِكَربْ
لا نَفعَ مِنكِ وقدْ رَكَنْتِ إلى الشُّحُوبْ
صدريْ يَضِيقُ فأرسِليْ فِيْ كُلِّ دَربْ
لحنًا شجِيًّا.. شُعلةً تُحيِيْ القُلُوبْ

وإذا بَخُلتِ وسِلتِ مِنْ أوتَارِ
لمْ تُلهِبِيْ ألمَ الهَوَى في الرُّوحِ
سيلُفُّنِيْ صَمتٌ بِدَركِ قَرارِ
أهويْ إليهِ.. وفي الظَّلامِ ضريْحِيْ

XVII

أَمَامَ بُوذَا أنحَنِيْ
فِيْ ظُلْمَةٍ تغشانِيْ
أنتَ الوُضوحُ المُعجِزُ
والسِّلمُ بالنسيَانِ

قنَاعتِيْ تمُدُّنِيْ
بالفخرِ باطمئنَانِ
يا عالمًا بالشَّهوَةِ
وطبيعةِ الإنسانِ

أطوارَ عيشٍ جزتَهَا
في المُلكِ والتَّسوُّلِ
والرُّوحُ يُغنِيْ سرَّهَا
سنَاءُ بدرٍ مُنجلٍ

تركتَ مُلكًا تغتَنِيْ
بالرُّوحِ والتَّأمُّلِ
كسَرتْ أغلالًا لِكيْ
تُنيرَ دربَ الآمِلِ

عانيتَ حولًا بعدَ حولْ
في زُرقةٍ تُعميْ البصرْ
سرُّ المُعاناةِ الوُصُولْ
بحثًا بأطباعِ البَشرْ

في عُمقِ عُمقِ الرُّوحِ
وَجدْتَ أصلَ العاصِفةْ
فِيْ ملعبٍ مفتُوحِ
هنَاكَ نبعُ العاطِفَةْ

حبٌّ إلى جنبِ الغضبْ
معًا هُناكْ يُولدانْ
والرُّوحُ بيتُ العَنكبوتْ
مكلَّلًا بالعاطِفةْ

XVIII

«خُلودُ الرُّوحِ كالحقِّ اتقادًا»
أذلك عن لويولا* ؟ توركيمادا** ؟
بدائيٌّ خّيالُهُمَا.. أبادَ
صفاءَ الِّذهنِ أمساهُ خرابَا

أأحمِلُ رسمَ وجهِكِ في خَياليْ
إلى الأبَدِ ابتغاءَ هوىً محالِ
ولا مسعى لوُدِّيْ أو وِصاليْ
وأوعدُ جنَّةً.. أصلى عذَابَا!

عَلامَ سأحمَدُ الباريْ علامَ ؟
أليْسَ القلبُ مثواهُ الحِمَامَ ؟
أيسخرُ مِن هوىً يمحُوْ غرامًا؟
يُرينا جنَّةً ويصُدُّ بابًا!

ولستُ أحاجِجُ الربَّ المعُينَا
ولا أؤذي مشاعِرَ مؤمنِينا
ولستُ أواجِهُ الدُّنيا بسيفٍ
من الورقِ التوى، أبغي خرابًا

ورُومَنْسِيَّتِيْ هجرتْ عُيونِيْ
أساطيري انطَفتْ لا تسأليْنيْ
عنِ الأرواحِ، ما عادتْ يقيْنِيْ
وإيمانيْ اختَفى.. كالمَلحِ ذابَا

---

* أغناطبوس دي لويولا (*1491-1556*) فارس إسباني من عائلة باسكيّة ببيلة، عالم لاهوتيّ أسّس الرهبنة البسوعيّة وبات مُرشدها. برر كزعيم ديني إصلاحي في وجه السلطة المطلقة لبابا الكنيسة الكاثوليكيّة. طُوِّبَ قديسًا سنة *1622*.

** توماس دي توركيمادا (*1420-1498*) راهب إسبانيّ دومينيكاني، كان المحقّق الأول في محاكم التفتيش الكنسيّة. قضى على يده خلق كثير، وأحرق أكثر من ألفي شخص بتهمة الزندقة.

عنِ الرُّوحِ اسمعيني لا تَخَافِيْ
هوَ الإنسانُ أبدعَها يُكافِيْ
ظلامَ النَّفسِ يبطُشُ بالضِّعافِ
ويَطغى في الملا يلويْ الرِّقَابَ

أراها المادَّةُ امتازت بسطوَةْ
بلا أزلٍ.. بلا أبدٍ وأقوى
من الأربابِ عشتار ويَهوَه
إذا رُمتِ الحقيقةَ والصَّوابَ

ووسط عُبابَةِ الكونِ الفسيحِ
زَوابِعُ لا تُعدُّ، بدونِ ريحِ
تدورُ تفورُ تُصدمُ في جُنوحِ
وتلك كواكِب تغشى سرابًا

وفي أعماق أموَاجِ المجرَّةْ
ملايينُ الكواكبِ مُستقرَّةْ
فقاقيعٌ صِغارٌ مكفهِرَّةْ
تناثرها انفجاراتٌ تُرابًا

مشاعِرُنَا وأفعالُ المَدارِكْ
هي الذرَّاتُ في عُمقِ المهَالِكْ
تموتُ هُنَا فتُبعَثُ في الهُنالِكْ
سديمُ زَوابِع يأبى احتِجَابًا

بلا هدفٍ تدُورُ بلا بدايَةْ
مجرَّاتٌ بلا مسرىً وغايةْ..
وأجسامٌ تكوِّنُها خلايا
بلا مَسعى وتشتَعِلُ اضطرابًا!

وبينَ توافِهِ الدُّنيَا الكثيرَةْ
هنَا بشرٌ مدارِكُهُمْ حقيرَة
بِوهمٍ آمنوا، غالوا بحِيرَةْ
لسَبرِ الكونِ فازدادوا اغترابًا

أرادوا بوهمِهِمْ تفسيرَ كونٍ
يلائِمُهُمْ بأشكالٍ ولوْنٍ
كأطفالٍ بأحلام مخيفَةْ
تُحاصرهُمْ.. وهُم صَنعوا الرُّهَابا!

ولستُ مُصدِّقًا لأخافَ شيّا
أنا في سجنِ تعذِيبي شقيًّا
وروحي تهجُرُ الجسمَ العصيَّا
تعُوُدُ لمادَّةٍ تهوى الإيابَا

تُريدُ تفجُّرَ الجِسمِ السقيمِ
ووأدَ شرارةِ العقلِ العقيْمِ
ونزعَ خصائصِ البشريِّ عنها
لتسبحَ حُرَّةً ترميْ الإهَابَا

XIX

«أتهربُ من صفوفٍ أنت فيها!»
تقولونَ ابتدا إفلاسُ روحِي
وإنَّ «الانتحارَ دليلُ جُبْنٍ»
كلامُكمُ الكثيرُ بلا وضوحِ

إذا كان السؤالُ: من الجبانُ؟
لَعمريْ فاصمتوا عن ذي الشُّروح
فماذا تعرفونَ عن العذابِ
وكيف يسودُ في الجسدِ الجريْحِ
وطعمِ حلاوةِ الإفلاتِ منهُ؟
أتُعجِبُكُمْ ملامَسةُ القُرُوحِ
ورائحةُ الدَّمارِ بساحِ حربٍ
بلا معنىً تدومُ إلى جُنُوحِ؟

أجرَّبتُمْ عبورَ جدارِ منفىً
بنطحِه بالنَّواصي والجُروحِ؟
تقولُ قد امتلا بالشرِّ قلبيْ!
سأتركُ ذيْ الإجابةَ للمسيحِ
ألم يمشِ وصحبَهُ يوم سبتٍ
وشاهد موسويًّا في البَريْحِ
يعالجُ أرضَهُ سعيًا وحرثًا
أتعلمُ ما غدا فعلُ المسيح؟

إذا وَصَلتكَ غايتُهُ فانعمْ!
وإلَّا اللَّعنُ بالقَولِ المُعَظَّمْ
إذا وَصَلتكَ.. فالقَانُونُ مَعْلَمْ

وماذا يَنْفَعُ القانُونُ إنْ لَمْ...؟
فمنْ يَدريْ يكونُ الحَقُّ دَرْبَهْ
وعبدُ الجَهلِ رأسَهُ فَليُحَطِّمْ
وأعلمُ أنَّنِيْ أدْرَى بِحَالي
ومنْ غيريْ بِنَفسِي سوفَ يَعلمْ؟

XX

هِيَ آلةٌ مِطواعةٌ برَّاقَةْ
لسَعتْ يديْ بَردًا ونامتْ ساكِنةْ
وبضَغطةٍ من إصبعيْ برشاقةْ
ستسيلُ مِن صدغيْ الدِّماءُ السَّاخِنَةْ
«آهٍ» تُرافِقُ دمعةً حرَّاقةْ
ستفرُّ منِّي كالتَّنهُّدِ واهِنةْ

جِسميْ سَيَهوِيْ فيْ انحِناءِ مودِّعِ
كتحيَّة الجُمهورِ فيْ الفصلِ الأخيرْ
هذا دوا آلامِ قلبٍ مُوجَعِ
تِريَاقُ همِّ الحُزنِ والمرضِ الخطيْرْ

أحشو المسدَّسَ بالرصاصِ اللَّامِعِ
قربَ الحبيْبَةِ أحبُسُ النَّفَسَ الأثِيرْ
وأضُمُّهَا للصَّدْرِ كالمُتَضَرِّعِ
وبِضَغطَةٍ يَعلُو الأزيزُ على الصَّريرْ
هيَ نفخَةٌ فيْ شَمعَةٍ لم تُسمَعِ
ومُسدَّسِيْ للأرضِ يَهويْ للحَصيْرْ
يَهوِيْ بِلُطفٍ مِنْ يَديْ كالضَّائعِ
وتَضيْعُ أنفاسِيْ.. بِلا حِسٍّ أصِيرْ

هيَ وَمضةٌ - حَسَنًا - أتلكَ خطيْئتِيْ؟
فإلامَ دَوْمُ مَوَاجِعِيْ فيْ حَسْرَتِيْ؟
وعلى الأقلِّ هُنَا أحَقِّقُ رغبتِيْ
من دونِ أيِّ تَدخُّلٍ.. بإرادَتِيْ
من ذا يُباليْ بي أنَا؟ ما قِيمَتِيْ؟

كهبَاءة في الظِّلِّ أو كبعُوضةٍ؟
أو جَوزةٍ فرغتْ بداخِل قشرةٍ؟
أو بِزرةٍ سُحقتْ.. أنا كالبِزرَةِ!
هِيَ وَمضةٌ - حسَنًا - تليْ إيماءَتِيْ
سأُرِيْحُ نفسِيْ مِنْ بَراثِنِ لعنَتِيْ